غراتسيا ديليدّا

جائزة نوبل للآداب 1926

الأمّ

ترجمها عن الإيطاليّة:

نبيل رضا المهايني

التكوين

رواية



https://t.me/khatmoh

☒ لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختـزان مادتـه بطريقـة الاسـترجاع، أو نقلـه، علـى أي نحـو أو بـأي طريقـة سـواء كانـت الكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابيـة من الناشر ومسبقاً.

غراتسيا ديليدّا

نوبل 1926



الأمّ

رواية



ترجمها عن الإيطالية: نبيل رضا المهايني



نبيل رضا المهايني؛ مواليد دمشق 1944. صدر له:
الهروب إلى مصر، غراتسيا ديليدّا؛ **سراب**، أنطونيو تابوكّي؛ **ايزابيل**، أنطونيو تابوكّي؛ **أرز لبنان وقصص من سردينيا**، غراتسيا ديليدّا؛ **بينوكيو**، كارلو كولّودي؛ **حبّ في سردينيا**، ميلينا آغوس؛ **جثث فخمة**، ليوناردو شاشا؛ **أمريكان الضيعة**، لويجي كابوانا؛ **المؤرّخون العرب للحروب الصليبيّة**، فرانشيسكو غابرييلي؛ **قلب**، ادموندو دي آميشيس؛ **شيزاره بافيسه**، **صاحبة النزل**، كارلو غولدوني؛ **الماندراغولا**، نيكولا مكيافيلّي؛ **الصحارى العربيّة**، **أنا وهو**، ألبرتو مورافيا؛ الثورة المتواصلة، (بالاشتراك مع الياس مرقص) إنريكا بيشيل.

الطبعة الأولى 2018

© حقوق النشر والترجمة والاقتباس محفوظة
لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468
فاكس: 00963 112257677
ص. ب: 11418، دمشق - سوريا
taakwen@yahoo.com

أوّل نوبل نسائيّ لأديبة إيطاليّة

ثاني امرأة في العالم تحصل على جائزة نوبل للآداب

في 14 آب 2016 قدّم سيرجو ماتّاريلا[1] رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة التصريح التالي: "في عام 2016 هذا تحلّ الذكرى الثمانون لموت كاتبة بلدة نوّرو[2] غراتسيا ديليدّا، وكذلك الذكرى التسعون لتقليدها جائزة نوبل النسائيّة الوحيدة التي قدّمت للأدب الإيطالي.

كانت غراتسيا ديليدّا امرأة قويّة مبدعة، لا تخاف الأحكام المسبقة، ومؤلّفة لنوع خاصّ من الكتابة، يضرب جذوره في أعماق معرفتها لتقاليد موطنها جزيرة سردينيا ولثقافتها.

إنّ هذا الرباط الوثيق بين الأدب والموطن، والذي تمكّنت على كلٍّ من التحرّر منه، يسري عبر إنتاجها على هدى أنموذج مشحونٍ بقوّة استثنائية وبقدرة تعبيرية فائقة، كما يحمل بين طيّاته نغماتها الغنائيّة وسيرتها الذاتيّة، ويمثّل شخصيّات تعكس غالباً الحياة التي كانت تحلم بها.

لقد ترجمت ديليدّا مشاعر القلق الوجوديّة التي ميّزت القرن التاسع عشر، وتمكّنت من الدخول بكلّ جدارة إلى أوليمبوس المشهد الأدبيّ العالميّ. وكان ذلك بفضل أصالة إنتاجها، ونفاسة أعمالها الأدبيّة، هذا رغم انحدارها من منطقة ريفيّة من مناطق بلادنا.

---

(1) Sergio Mattarella.
(2) Nuoro.

في رواياتها نستطيع أن نشاهد الأثر الحاسم للمذهب الروائيّ الواقعيّ الذي رسم نقطة تحوّل أساسيّة في طراز كتابتها، ومكّنها من أن ترسم بيد بارعة شخصيّات تعاني من صراعات باطنيّة عميقة.

إنّ أعمالها تمثّل حجر الأساس في بناء تاريخ الأدب، وإنّ إعادة نشر الكثير من أعمالها اليوم، ليشهد بالاهتمام المتزايد بإنتاجها. وهذا يساهم في نشر ثقافتنا داخل إيطاليا وفي الخارج، ويعمل كذلك على تمثيل أنموذج لا شكّ في قيمته بالنسبة للأجيال الجديدة".

غراتسيا ديليدّا

غراتسيا ديليدّا (1871-1936) روائيّة وشاعرة ومؤلّفة مسرحيّة، اشتهرت بخصوبة إنتاجها الأدبي. ذاع صيتها في ايطاليا وفي أنحاء العالم حتّى إنّها أصبحت في عام 1926 ثاني امرأة في العالم تحصل على جائزة نوبل العالمية للآداب وذلك تقديرا لأدبها الذي "أبرز بشكل متميز مُثلاً سامية وقدرةً على تصوير واقع الحياة والإنسان بعمق وحرارة". وقد جاء في سياق خطاب تقديم الجائزة: "نجد في روايات ديليدّا أكثر ممّا نجد في غيرها وحدةً فريدة بين الإنسان والطبيعة. حتّى قد يمكن للمرء أن يقول إنّ البشر في رواياتها هم نوعٌ نباتيّ ينمو في تراب جزيرة سردينيا. أكثر أبطالها هم فلاحون بسطاء بدائيّو المشاعر والأفكار، لكنّهم يتحلّون بشيء كثير من عظمة بناء الطبيعة في سردينيا. بل إنّ بعضهم يضاهي في الضخامة عمالقةَ بعض شخصيّات العهد القديم".

"من الممكن القول إنّ غراتسيا ديليدّا لم تُعرِّف العالمَ فقط بسردينيا، بل عرّفت بها أيضاً بلدها إيطاليا. لقد صوّرت هذه الجزيرة المجهولة وأبرزتها كـ"أرض أساطير وخرافات"، كما قالت هي ذات مرّة.

لقد ولدت ديليدّا لتكتب، وأصبحت في الحال نوعاً من الطفلة المعجزة. لم تكن تعرف إلا لهجة منطقتها، ولم تدرس إلا الإبتدائيّة مثل غيرها من كثير من بنات الريف الإيطالي في ذلك الحين. لكنّها تمكّنت من تعلّم الإيطاليّة، وهي لغة بلدها، بل والفرنسيّة

والإنكليزيّة. وعندما كان عمرها 15 سنة فقط أرسلت بالسرّ قصّة قصيرة بعنوان "دم من سردينيا" إلى إحدى مجلات العاصمة روما التي نشرتها، فاستشاط غضب أهلها وأقربائها لجرأتها على تجاوز الحدود المسموح بها للنساء، وخاصة الصغيرات منهنّ. لكنّها واصلت تحدّياتها، فما ماتت عن عمر قارب الستّين عاماً، حتّى كانت قد نشرت ما يربو على 30 رواية والعديد من القصص القصيرة، عبّرت من خلالها عن مآسي الريف وحياته في جزيرتها البائسة"[1].

بدأت ديليدّا حياتها الأدبية، وهي في ريعان الصبا، بنشر قصصها في صحف الموضة الثانوية. ثمّ اشتهرت بعد أن انتقلت من بلدتها نوّرو في جزيرة سردينيا إلى العاصمة روما، حيث تزوّجت وتمكّنت من توطيد صلاتها مع العالم الأدبيّ والفكريّ الإيطاليّ. في عام 1895 بدأت بنشر روايات مثل "نفوس شريفة" و"العدالة" و"بعد الطلاق" وكثير غيرها.

أثارت رواياتها إعجاب مشاهير إيطاليّين وعالميّين مثل جوفانّي فيرغا، و د. اتش. لورنس الذي كتب مقدمة للترجمة الانكليزية لروايتها "الأم"، ومكسيم غوركي الذي نصح أديبة روسيّة شابّة بالاقتداء بديليدّا وأدبها.

بنَت ديليدّا أدبَها على أسس من الواقعيّة المحليّة، وارتبطت أعمالها ارتباطاً وثيقاً بموطنها الأصلي أي جزيرة سردينيا. ومن هنا التشابه الكبير بين أماكن الجزيرة وطبيعتها، وبين نفسيّة كثير من الشخصيات في رواياتها.

---

(1) عن Jeff Matthews في موقع انترنت لنابولي خاص بالكاتبة.

حاولت ديليدّا أن تلوّن أقدار الشرّ والخطيئة التي صوّرتها بـألوان قاتمة، مقابل الرغبة في التغلّب عليها، والتحرّر منها والتمتّع بالحيـاة وبالطبيعة الطلقة ذات المظاهر الشاعريّة. لهذا نـرى أنّ أعمـال الكاتبـة مليئة بمشاعر الحبّ العنيفة وما يصاحبها من آلام.

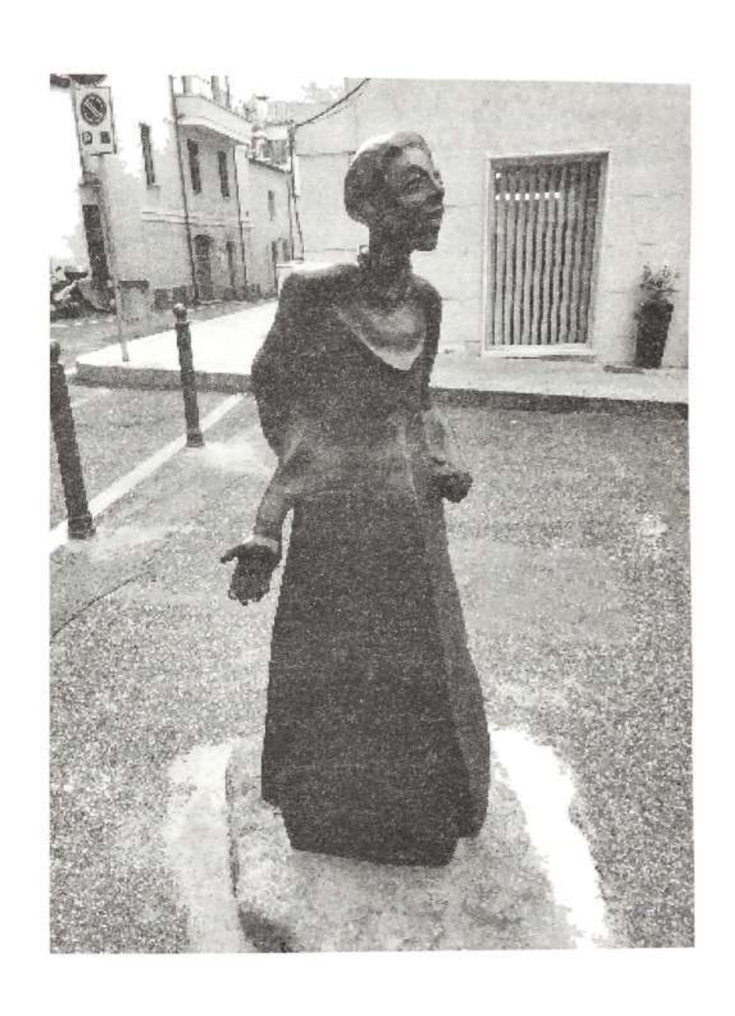
عمل النقاد على تـأطير أعمـال ديليـدّا في كـثير مـن المـذاهب الأدبيـة، فقيـل الكـثير عـن الأدب المحلـيّ والأدب الـسردينيّ في أعمالها، والمذهب الواقعيّ والمذهب الانحطاطيّ. لكنّ نقـادا آخـرين رأوا في أعمالها شاعريّةً من نوع خاصّ ومدرسةً أدبيّة في حدّ ذاتها.

فالاقتراب من تيـارات الواقعيّـة الـسائدة لم يمنعهـا مـن اعتمـاد أسلوب متميّز فريد من نوعه، قائم على إبراز الطابع المحلـي ومآسـي الشخصيات، مع النبش في أعماق النفـس البشرية ومـشاكلها وأبعادهـا الروحية.

أكثرُ شخصيات ديليدّا قلقةٌ تقع ضحيّة صراعاتها الداخليّـة، غـير أنّها تجد سـنداً لهـا في العمـق الـديني، خاصّـة عنـدما تتحـرك علـى أرضيّتها القاسية العنيفة، أرضيّة سردينيا.

ماتت ديليدّا إثر مرض عضال ودفنت في كنيـسة عـذراء الوحـدة في بلدتها نوّرو في سردينيا، فتحوّل بيتها هناك إلى متحف تاريخي.

وتجري الاستعدادات الآن لإقامـة تمثـال برونـزيّ لهـا بـالحجم الطبيعي لينصب في إحدى ساحات المدينة.



تمثال غراتسيا ديليدا

عن رواية "الأمّ"

نشرت رواية "الأم" في جريدة "إلتيمبو" الإيطاليّة عام 1919على شكل حلقات، وتم نشرها لاحقاً في كتاب عام 1929 في مدينة ميلانو.

وقد تمّت ترجمة الرواية مرّتين إلى الإنكليزية، وقام الكاتب الإنكليزي المعروف د. اتش. لورنس بكتابة مقدّمة للترجمة الشهيرة الصادرة عام 1923. ومن الطبيعيّ أنّ الرواية قد نشرت عشرات المرّات بالإيطاليّة والإنكليزية وغيرهما من اللغات. كما تمّ استيحاء الرواية وإخراجها في فيلمين متميزين ظهرا في إيطاليا، أوّلهما عام 1954 بعنوان "الممنوع" والثاني بعنوان "الأم" عام 2014.

بطلة الرواية هي ماريّا مادّالينا أمّ باولو خوري كنيسة آار، وهي بلدة خياليّة على جبال جزيرة سردينيا. يحب باولو آنييزِه، التي تعيش وحدها في البلدة، وتنشأ بين الاثنين علاقة حبّ جامحة. تعاني الأمّ أشدّ المعاناة عندما تكتشف هذه العلاقة، كما أنّ باولو يتعرّض لقلق شديد بسبب هذه الخطيئة، فيسعى إلى ترك آنييزه. عندها تهدّد الفتاة بأن تفضح الراهب أمام المصلّين في الكنيسة التي سيقيم القدّاس فيها. لكنّها ما تلبث أن تتراجع عن هذه الخطّة. تتراكم هذه الهموم في قلب الأمّ، وتملأ قلبها بالحزن وبالألم، فتموت فجأة وهي تصلّي في الكنيسة.

وكانت قد تسرّبت إشاعة بين أهالي بلدة آآر تدّعي أنّ اللعنة قد حلّت على كنيسة البلدة. ذلك أنّ قسّ البلدة القديم تاه عن الصراط المستقيم بعد أن أغرته ملذّات الدنيا. أمّا بأولو، القسّ الجديد، فيبدو أنّه رجل مستقيم، لكن أمّه كانت قادرة على قراءة قلبه وكشف شكوكه وذنوبه.

تحكي رواية الأم قصّة بسيطة، فمن جهة معيّنة هناك الشكوك التي يعاني منها القسّ، وقلبه المقسوم بين حبّه للفتاة الجميلة آنييزه، وبين قَسَمِ الإخلاص الذي أدّاه للكنيسة. وهناك من جهة أخرى أمّه التي تعاني بسبب المعضلة التي تؤلم ابنها، وتسعى إلى تخليصه وإعادته إلى سواء السبيل.

كتب أحد القرّاء الإيطاليين يقول "لو كان لي أن أعيد صياغة عنوان الرواية بأسلوب ديليدا نفسه لسمّيتها "روح في مهبّ الريح". ففي الرواية يدور كلّ أمر حول روح لا تستطيع أن تبقى هادئة صامتة، يمثّل كلّ شيء فيها الرعب بمختلف أشكاله، ومن مختلف مناظيره. كما أنّ الكاتبة "تسمعنا" في كثير من الأحيان الحوارات التي تجريها كلّ شخصية مع نفسها، فتجعلنا بهذه الطريقة نشارك في وجهة نظر الشخصيّة المعنيّة، والتي ما تلبث أن تتغيّر.

إنّ الروح المنغلقة على نفسها لا يمكن أن تنعم بأيّ سلام.... كما أنّ السكون الزائف الذي يسود بسبب نقص الحركة، لا يخفي لامبالاة الأشخاص القلقين واضطراب نفوسهم، إذ أنّنا، حتّى عندما لا نصادف إجراءات فعليّة ملموسة، نسمع صوت خطوات تمشي في الغرفة وأصوات أدراج تُفتح وتُغلق، وهذا لسبب واحد: هو أن لا يبقى ذلك الشخص واقفاً بلا حركة.. كما أنّ هناك الهروب والفرار.. هروب الأمّ، الهروب من البلدة.. الهروب من كلّ شيء على أمل الفرار من النفس ومن قيود الأخلاق.

هناك في الرواية شخصيّتان رئيستان: باولو، الكاهن الذي جاء بكلام الله إلى بلدة تكاد أن تكون كافرة، ونجح في إعادة الإيمان ليزهر في أنحائها..باولو الذي بدأ أبناء بلدته يعتبرونه رجلاً فيه رائحة القداسة... باولو.. الذي يعتبره أنتيوكو، خادم الكنيسة الفتى الحكيم، أسطورةً وأيقونةً روحيّة.. وباولو العاشق الذي يتحدّى الشيطان....

هناك أيضاً ماريّا مادّالينا، الأمّ.. الأمّ التي تسند بظهرها جدار الكنيسة حتّى يبقى قائماً ولا يقع ويتهاوى.. لقد عشقتُ هذه المرأة التي وصفتها لنا ديليدا بأسلوب واقعيّ، وقدّمتها لنا كامرأة قصيرة القامة وقويّة الجسم كغيرها من نساء الشعب: "فبدت كأنّ ضربات فأس قد حفرتها من جذعِ شجرة بلّوط". كما يبرز في الكتاب رمزٌ ذو مغزى عميق: الجبلُ، رمز القوّة القاهرة، التي تخشى رغم عظمتها هزّات الزلازل.. كما تخشى شجرة البلّوط أن تُقطع وتُستأصل!

ها هو ابن يخجل من تقبيل يد أمّه لأنّها تعمل خادمة، وها هي أمّ تجري وراء ابنها لتؤكّد له وقوفها إلى جانبه حتّى يستقيم. بهذا تبدأ قراءتنا لهذه القصّة، لكنّنا لا ننهيها على هذا الشكل، لأنّه يمكن للأدوار أن تنقلب.

ورغم أنّ القصّة تجري كلّها خلال أيّام قليلة، إلا أنّ تفكيرنا الشخصيّ يتعثّر بثقل وزن استرجاع الأمّ والابن لمجرى حياتهما. نجد أنفسنا أمام خادمة للكنيسة، خادمة فعليّة وبكلّ معنى الكلمة، تعمل خادمة لتضمن لابنها مستقبلاً أفضل ومكانة اجتماعيّة أسمى، وتوجّهه كي يصبح هو الآخر خادماً لله... ثمّ تجري أحداث مختلفة فتتهدّم الثقة، بل ويتزعزع الإيمان نفسه. هذا قبل أن تعود براءة الطفل إلى باولو، ويعود إيمانه المطلق، ليكونا له عوناً في متابعة مسيرته.

هناك آنيزه أيضاً، الشخصيّة الثالثة، وهي ثانويّة، لكن ليس من ناحية أهمّيتها، وهي تجسّد الإغراء، الرغبة، صراع النفس، ونبذ... نبذ ماذا؟ نبذ الحبّ أو الكنيسة؟ نسمع ما يحكى عنها، ونتعلّم كيف نخشاها، وكيف نهرب منها...لكنّنا لا نجتمع بها إلا في نهاية القصّة... فنشارك في العذاب وفي اللقاء المؤلم حيث يجتمع الغضب والحنان سويّة، اللقاء الذي لم يمرّ دون نتائج ملموسة!.

عندما نغلق الكتاب نشعر بالمرارة والحزن...لماذا؟ ليس الأمر محسوماً ولا يمكن لي حقّا الكشف عنه!.

لكنّني من جهتي أعتبر أنّ بطلة الرواية بالفعل إنّما هي ماريّا مادّالينا، الأمّ بكلّ معنى الكلمة".

كما تساءلت صحافيّة إيطاليّة في مقالة حديثة لها، وقالت: "ماذا يميّز هذه الأمّ؟ إنّ ما يميّزها هي مقدرتها الفائقة على الدخول في أعماق الواقع لتصوّره باسم الحقيقة. لا يخفى عليها شيء، كما لو أنّها تعيش حياة متواصلة "حاضرة" في كلّ مكان. إنّ حياتها هي صلاة مستمرّة قائمة على الاهتمام المطلق بحياة ابنها".

أهمّ أعمال غراتسيا ديليدّا

* Fior di Sardegna زهرة ساردينيا.
* Anime oneste نفوس شريفة.
* Dopo il divorzio بعد الطلاق.
* Racconti sardi حكايا من ساردينيا.
* Elias Portolu إلياس بورتولو.
* Nostalgie حنين.
* Cenere رماد.
* L'edera اللبلاب.
* Canne al vento أقصاب في الهواء.
* Marianna Sirca ماريانّا سيركا.
* La madre الأم.
* La fuga in Egitto الهروب إلى مصر.
* Il sigillo d'amore خاتم الحبّ.
* Cosima كوزيما.
* Il cedro del Libano أرز لبنان.

صدر للكاتبة بالعربيّة، وبترجمة المترجم:

* أرز لبنان وقصص من سردينيا.
* الهروب إلى مصر.
* الأمّ.

ها هو باولو يستعدّ للخروج. إذن، سيخرج في هذه الليلة أيضاً.

كان يتحرّك بكلّ حذر. وقد سمعته أمّه من الغرفة المجاورة لغرفته. عرفت أنّه سيخرج بكلّ تأكيد. لكنّه ينتظرها على ما يبدو حتّى تطفأ الضوء، وتنام.

أطفأت الضوء، لكنّها لم تخلد إلى النوم. بل جلست قرب الباب، وهي تضغط بيدها على اليد الأخرى. إنّهما يدا الخادمة الخشنتين، يدان مازالتا رطبتيْن بماء الغسيل وتنظيف الأواني. كانت تضغط أيضاً بإبهاميها على بعضهما بعضاً، لتستمدّ بذلك بعض القوّة. كانت تشعر بقلق شديد. وكان قلقها يزداد لحظة بعد أخرى. حتّى غلب القلقُ رجاءَها بأن يهدأ ابنها، بأن يعود إلى مطالعة كتبه، كما كان يفعل، أو أن يذهب لينام على أقلّ تقدير. لقد توقّفت الآن خطوات الشاب الحذرة، فلم تسمع الأمّ إلا صوت الرياح وهي تعصف في الخارج، مصحوباً بحفيف الأشجار، المزروعة على المرتفع، خلف منزل الكنيسة الصغيرة[1]. لم تكن تلك الرياح شديدة

(1) استعملت في هذه الترجمة تعبيران: "منزل الكنيسة" و "مصلّى الكنيسة"، وذلك للتمييز بينهما. أمّا في النص الإيطالي الأصلي فهناك تعبيران مختلفان: "بارّوكيا" "Parrochia" (التي ترجمها البعض خطأً بـ "الأبرشيّة") و "الكنيسة". لقد ترجمت هنا كلمة "بارّوكيا" بـ "منزل الكنيسة"، أي الكنيسة التي تضم منزلاً يسكنه كاهن الكنيسة المقيم. واستعملت كلمة "كنيسة" أو "مصلّى الكنيسة"، للدلالة على المكان الذي تقام فيه الصلوات. لكنّي استعملت أيضاً كلمة "كنيسة" مجرّدة حيث يتطابق المعنيان أو حين يشار إلى الكنيسة كمؤسسة دينيّة.

جداً، وإن كانت حثيثة رتيبة، حتّى ليُظنّ أنّها تلفّ البيت بتيّار من الصخب والهدير، الذي كان يقترب ويزداد اقتراباً، كأنّما ليقتلع البيت من أساسه، ويطرحه أرضاً.

كانت الأمّ قد أوصدت الباب الخارجيّ بقضيبين متصالبين، لتمنع الشيطان من التسلّل إلى البيت، لأنّه يتجوّل في الليالي التي تعصف فيها الرياح، بحثاً عن أنفسٍ يصطادها. كانت لا تؤمن في قرارة نفسها بهذه الأمور، لكنّها الآن بدأت تعتقد، بمرارةٍ وبنوعٍ من ازدراء الذات، أنّ الأرواح الشرّيرة قد سكنت بالفعل داخل منزل الكنيسة الصغيرة بالذات، وأنّها تشرب من إبريق ابنها باولو، وتدور حول مرآته المعلّقة قرب نافذته.

وفي الواقع فها هو باولو يتحرّك من جديد، لربّما أصبح الآن أمام المرآة، وإن كان هذا لا يُسمح للرهبان بفعله. لكن ما الذي بقي باولو يحترمه منذ مدّة من الزمان؟

وهنا تذكّرت الأم أنّها قد فاجأته مؤخّراً عدّة مرّات، وهو يتمرّى كالنساء، بل وهو ينظّف أظافره ويلمّعها، ويسرّح شعره ويرفعه بعد أن تركه يطول، وكأنّما ليخفي الأمكنة الحليقة في رأسه[1].

كما أنّه بدأ يستعمل العطور وينظّف أسنانه بموادّ معطّرة، بل ويمرّر المشط على حاجبيه أيضاً....

بدا لها أنّها تراه الآن بأمّ عينيها، كما لو أنّ الجدار قد انشقّ دونه. ها هو ينتصب أسود اللون أمام جدران غرفته البيضاء، طويل القامة، بل طويلاً جداً، خليع الحركات، يروح ويجيء بخطواته

---

(1) كانت الطقوس الكنسيّة المقدّسة - التي ألغيت الآن - تقتضي حلق خمس خصل من شعر رأس الشخص الذي يدخل في السلك الكنسيّ

الشاردة الصبيانيّة، فيتعثّر ويتزحلق، لكن دون أن يفقد توازنه. بدا رأسه ضخماً شيئاً ما فوق الرقبة الرقيقة، كما بدا أنّ جبهته البارزة تطغى على وجهه الشاحب، وعلى حاجبيه، لتبقياهما مقطّبين وقادرين على حملها، وتطغى كذلك على العينين الطويلتين فتبقيا شبه مغمضتين. لكن يبدو أنّ الحنكين القويّين، والفم الواسع المكتنز، والذقن القاسية، يتمرّدون جميعاً على طغيان الجبهة دون أن يتمكّنوا من التخلّص منها.

لكن ها هو الآن يقف أمام المرآة، فيضيء وجهه، بعد أن يرتفع جفناه وتلمع مقلتاه كالألماس في شفافيّة عينيه الكستنائيّتين.

شعرت الأمّ بالسرور يختلج في أعماق قلبها، أو ليست هي أمّه. فما أحلى أن ترى ابنها، على هذا الشكل، جميلاً وقويّاً، لكنّ صوت خطواته الحذرة أعادها إلى آلامها.

إنّه سيخرج، سيخرج من غير شكّ. لقد فتح باب غرفته. توقّف مرّة أخرى. لربّما كان يصيخ السمع هو أيضاً ليستشفّ الأصوات حوله. لكن لم يكن هناك إلا أزيز الرياح، وهي تصفع جدران البيت. حاولت الأمّ أن تنهض، وأن تصرخ.

"ابني، باولو، يا مخلوق الله، توقّف".

لكنّ قوّة أعظم من إرادتها لجمتها. كانت ركبتاها ترتجفان، وكأنّهما تتمرّدان على تلك القوّة الجهنّميّة. الركبتان ترتجفان، لكنّ القدمين لا تريدان التحرّك. كما لو أنّ يدين جبّارتين تلزماهما الأرض.

وهكذا تمكّن ابنها باولو من النزول بصمت على الدرج، وأن يفتح الباب وينطلق. بدا كما لو أنّ الريح حملته بعيداً، على حين غرّة. عندها فقط تمكّنت من النهوض، فأشعلت السراج من جديد، لكن

بصعوبة، لأنّ أعواد الثقاب كانت تأبى أن تتقدّ، بل كانت ترسم على الجدار الذي كانت تشحذها عليه، خطوطاً بنفسجيّة برّاقة وطويلة.

في النهاية أطلق السراج النحاسيّ الصغير خماراً من الضوء، أنار الغرفة العارية البائسة، الشبيهة بغرف الخدم، ففتحت الباب وأطلّت لتصيخ السمع. ارتجفت، ومع هذا فقد كانت تتحرّك كأنّها قطعة واحدة من خشب صلب، برأسها الضخم المنصوب على جسمها القصير الصامد، الذي بدا تحت ثوبها الأسود الباهت، كأنّه نُحِتَ بضربات الفأس، في جذع شجرة بلّوط.

من أعلى الباب، رأت الدرجَ الحجريّ الذي ينحدر بين الجدران البيضاء، وفي نهايته الباب الخارجيّ، الذي كانت الرياح تحركه على مفاصله، رأت القضبان التي نزعها باولو عن الباب، وركنها على الجدار، فسيطرت عليها نوبةٌ من الغضب.

لا، إنّها تريد أن تنتصر على الشيطان. وضعت السراج في أعلى الدرج، ثمّ نزلت وخرجت هي أيضاً. لفّتها الرياح بعنف، ونفخت في منديلها وثيابها، كأنّما لتجبرها على العودة. لكنّها أوثقت رباط منديلها تحت ذقنها، حنت رأسها مصمّمة على مجابهة هذه العقبة، ثمّ انطلقت. وهكذا مرّت أمام واجهة منزل الكنيسة الصغيرة، وتجاوزت سور الحقل، ثمّ واجهة مصلّى الكنيسة، ولم تتوقّف ألا عند الزاوية. لقد رأت باولو ينعطف من هنا لينطلق بسرعة. كانت ثنايا معطفه الأسود تتطاير، فبدا لها كأنّه طائر أسود كبير، يعبر ذلك المرج الممتدّ أمام البيت القديم، القائم على المرتفع، الذي يسدّ الأفق فوق القرية.

كان ضوء القمر، الأزرق أحياناً والأصفر أحياناً أخرى، يظهر وراء الغيوم الضخمة المسرعة، لينير المرج المعشوشب، والساحة

الضيّقة الممتدّة أمام الكنيستين، وصفّين من البيوت يتعرّجان على طرفي طريق منحدرة تمتدّ وتضيع بين بقع أشجار الوادي. ظهر في وسط الوادي ما يشبه طريقاً ثانية رماديّة معوجّة، لكنّه كان مجرّد نهر يجري، ويضيع بدوره بين أنهار وطرق أخرى. تشكّل المنظر في مشهد خلاب رائع، تحجبه أحياناً غيوم تدفعها الرياح، ثمّ يعود ويتشكّل من جديد في الأفق، على عنق الوادي.

أمّا في القرية فقد غابت كلّ الأضواء، وبقي خيط من دخان. لقد أخلدوا للنوم. كانت البيوت البائسة كأنّها صفّان من أغنام تتسلّق المنحدر المعشوشب، تحت ظلّ الكنيسة، التي بدت ببرجها الهزيل المخفيّ بدوره وراء المرتفع، مثل راعٍ مستندٍ على عصاه.

كانت أشجار الحور، المصفوفة على طول شرفة ساحة الكنيسة، تتضارب بعنف بين بعضها، على وقع هبوب الريح، فتظهر سوداء مضطربة كالوحوش، ويتردّد على صخب حفيفها نحيبُ الصفصاف وأقصاب الوادي. حلّت بالأمّ وهي تلاحق ابنها أحزانٌ مضطربة، اختلطت بآلام الليل تلك، وبلهاث الرياح وبغرق القمر بين الغيوم.

حتّى تلك اللحظة كانت تلوك أوهامها، كانت ترجو أن يكون قد ذهب مثلاً إلى البلدة ليزور بعض المرضى. لكنّه ها هو يجري، كمن تغشّاه الشيطان، نحو البيت القديم تحت المرتفع.

لم يكن هناك في ذلك البيت القديم تحت المرتفع إلا امرأةٌ غير مريضة، صحيحة سليمة، بل شابّة وجميلة...

ومع هذا فهو لم يتوجّه، كما يفعل الزائر العاديّ، نحو باب البيت، بل ذهب مباشرة نحو بوابّة البستان الصغيرة. وقد شاهدت البوّابة وهي تنفتح ثمّ تنغلق وراءه، كأنّها فمٌ أسود انفغر ليطبق عليه، فابتلعه.

اندفعت هي الأخرى عبر البستان، كأنّها تقتفي آثار ابنها على العشب، وذلك حتّى وصلت إلى البوّابة، فدفعتها بكلّ قوّةٍ يديها المشرّعتين.

لم تتزحزح البوّابة، بل ظهر كأنّها تصدّها صدّاً. فأرادت المرأة أن تضرب عليها، وأن تصرخ، لكنّها نظرت إلى الأعلى ولمست الجدار، كما لو لتمتحن متانته. عندما حلّ بها اليأس مالت بأذنها لتسمع: لكنّها لم تسمع إلا حفيف أشجار البستان. أشجار لابدّ أنّها صديقة صاحبة البيت، بل وشريكة لها، فهي ما فتئت تغطّي بضجيج حفيفها كلّ صوت آخر.

لكنّ الأمّ قرّرت أن تفوز، وأن تسمع، وأن ترى... كانت تعرف الحقيقة في قرارة نفسها، غير أنّها أرادت أن تخدع نفسها مرّة أخرى لتظنّ بأنّها واهمة.

لم تحاول التخفّي هذه المرّة، فسارت على طول جدار البستان، وعلى طول واجهة البيت، ثمّ تجاوزتها نحو باب الرواق. كانت تلمس في طريقها الأحجار، كما لو أنّها تبحث عن حجر رخوٍ، يمكن أن يفسح لها مجالاً للعبور.

لكنّ الأحجار كانت كلّها صلبة متماسكة منيعة، كما كان الباب، وباب الرواق، وكانت النوافذ كذلك محميّة جميعها بشباك حديديّة، كشباك القلاع.

في تلك اللحظة كان القمر ساطعاً في وسط بحيرة زرقاء. كان ينير الواجهة المحمرّة حيث يسقط ظلّ السقف المائل المغطّى بالأعشاب. أمّا زجاج النوافذ فلم يكن عليه ستائر خشبيّة خارجيّة، بل ستائر داخليّة مغلقة، وكان يلمع مثل المرايا الخضراء، ويعكس الغيوم وبعضاً من زرقة السماء والأشجار التي تهتزّ فوق المرتفع.

تراجعت إلى الوراء، لمست برأسها الحلقات الحديديّة المثبّتة على الجدار، والتي تستعمل لربط الخيل. توقّفت من جديد أمام الباب. فشعرت فجأة بالمذلّة. يرتفع الباب على ثلاث درجات من الغرانيت، وهو محميّ بقوس على الطراز القوطيّ، ومصفّح بالحديد. عندما أصبحت أمام هذا الباب، عرفت أنّها لن تستطيع أن تفوز. لقد شعرت أنّها الآن أصغر من وقت كانت تأتي وهي طفلة صغيرة، مع غيرها من أطفال البلدة الفقراء، يتلكّؤون هناك بانتظار أن يخرج صاحب البيت، ليرمي إليهم بشيء من النقود.

في ذلك الوقت البعيد كان الباب يبقى مفتوحاً أحياناً بشكل يكشف المدخل المظلم المبلّط بالحجارة، والكراسي الحجريّة أيضاً. كان الأطفال وقتها يتدافعون ويصلون حتّى العتبة وهم يصرخون، ليصل صدى أصواتهم إلى داخل البيت العميق كالمغارة، عندها كانت الخادمة تطلّ عليهم لتطردهم.

"كيف حدث أنّكِ بينهم أنت أيضاً يا ماريّا مادّالينا؟ ألا تخجلين من الانضمام للصغار وقد أصبحت كبيرة؟"

كانت عندها تخاف وتتنحّى جانباً، رغم أنّها تبقى واقفة، لتتابع النظر بفضول، في داخل البيت الغامض العجيب. وهكذا تنحّت الآن، وهي تضغط على يديها من شدّة اليأس، وتستدير لتنظر إلى الباب الذي ابتلع كالمصيدة ابنها باولو. لكنّها بمقدار ما كانت تتراجع لتعود إلى بيتها، بمقدار ما ندمت على أنّها لم تصرخ، ولم تلقي الحجارة على الباب لتفتحه وتسترجع ابنها. ندمت، وتوقّفت، ثمّ عادت وسارت، وعادت وتراجعت يدفعها تردّدها الحزين. ذلك حتّى طغت عليها غريزتها، لتستجمع قواها قبل المعركة الحاسمة.

لكنّها استدارت، واندفعت نحو بيتها من جديد، كأنّها وحش جريح يعود إلى جحره.

ما إن أصبحت داخل البيت حتّى غلّقت الباب، وتهالكت لتجلس على الدرج.



من فوق، كانت تصل ومضات مهتزّة من ضوء السراج، فكان يبدو أنّ كلّ شيء يهتزّ داخل ذلك البيت الصغير، كما يهتزّ عشّ بين الصخور. بينما كان كلّ شيء فيه جامداً وهادئاً، أمّا الآن فقد انهارت الصخور من قواعدها، وهمّ العشّ بالسقوط.

اشتدّ عصف الرياح في الخارج: إنّه الشيطان يمرّ على الكنيستين وعلى عالم المسيحيّين بأسره.

"إلهي، يا إلهي!" صاحت الأمّ منتحبة، فبدا كأنّ صوتها صوت امرأة أخرى.

وهكذا فعندما نظرت إلى ظلّها المرسوم على جدار الدرج، فإنّها أشارت له برأسها. أجل، لقد بدا لها أنّها لم تعد وحيدة، فبدأت بالتحدّث كما لو أنّ هناك امرأة أخرى بالفعل، تسمعها وتجيبها.

"ماذا أفعل لكي أنقذه؟"

"هل أنتظره حتّى يعود فأكلّمه بصراحة وعزم، وفي الحال؟ إنّكِ ما زلت في فسحة من الوقت يا ماريّا مادّالينا".

"لابدّ أنّه سيغضب، سينكر. لذلك فمن الأفضل أن أذهب لعند الأسقف لأرجوه أن ينقلنا من هذا المكان، مكان الهلاك. إنّ الأسقف إنسان يخشى الله ويعرف الدنيا. سأجثو أمام قدميه. يتهيّأ لي أنّي أراه أمامي، بملابسه البيضاء، في صالته الحمراء، صليبه الذهبيّ البرّاق على صدره، يبارك بإصبعيه المستقيمين. يبدو أنّه هو المسيح، وبالذات. سأقول له: "سيّدي المونسينيور، إنّك تعلم أنّ أبرشيّة آآر فضلاً عن كونها أفقر أبرشيّة في المملكة، فهي مصابة أيضاً باللعنة. لقد بقيت لأكثر من مائة عام بدون قسّ، بل إنّ أهاليها نسوا الله. وفي نهاية الأمر، جاءها قسّ، لكنّ المونسينيور يعرف نوعيّة الشخص

الذي جاء. لقد بقي حتّى الخمسين من عمره، طيّباً كالقدّيسين، فأعاد بناء الكنيستين، وعمل على تشييد جسر فوق النهر على نفقته الخاصّة، وكان يذهب للصيد ويعيش حياة عاديّة مشتركة مع صيّادي الأسماك وصيّادي الطرائد. لكنّه تغيّر على حين غرّة وأصبح سيّئاً شرّيراً كالشيطان، بل ومارس السحر، وبدأ يشرب ويسكر وانقلب صلفاً متعجرفاً. يدخّن الغليون، يشتم الناس، ويجلس على الأرض، ليلعب الورق مع أسوأ الأوغاد في البلدة، وكان هؤلاء يحبّونه ويدافعون عنه، واحترمه آخرون لهذا السبب بالذات. بعدها، وفي السنوات الأخيرة، انغلق على نفسه داخل منزل الكنيسة، بقي وحيداً، حتّى بدون خادمة، ولم يكن يخرج إن لم يكن لإقامة القدّاس، لكنّه كان يقيمه قبل الفجر لذلك فإنّ أحداً لم يكن يذهب إليه. بل قالوا إنّه كان يقيم القدّاس وهو سكران. كان بقيّة الخوارنة يمتنعون عن توجيه أصابع الاتّهام نحوه بسبب الخوف ممّا قيل عنه بأنّ الشيطان بالذات يحميه. عندما مرض لم تقبل أيّة امرأة أن تذهب لمساعدته. ولم يقبل حتّى الرجال، وخاصّة الرجال الطيّبون، أن يذهبوا لمساعدته خلال أيّامه الأخيرة. ومع هذا فقد كانت كلّ نوافذ منزل الكنيسة تُرى مضاءةً في الليل، حتّى قيل إنّ الشيطان قد حفر نفقاً تحت الأرض يصل هذا المكان بالنهر، بشكل يمكن معه نقل جثمان القسّ. وكانت روح القسّ تأتي إلى هذا النفق منذ سنين بعد موته وتستحوذ على منزل الكنيسة التي لم يشأ أيّ خوري آخر أن يأتي ليسكن فيه. لذلك كان يأتي قسّ من بلدة أخرى، كلّ يوم أحد، ليقيم القدّاس وليدفن الموتى. لكنّ روح القسّ الميّت عملت ذات ليلة على هدم الجسر. وبقيت الكنيسة لمدّة عشر سنين بدون قسّ. ذلك حتّى جاء ابني باولو، وجئت أنا معه. وجد أنّ السكّان توحّشوا، وجدهم بدون إيمان. لكنّ كلّ شيء عاد بعد وصول ابني باولو وازدهر، كما

تزهر الأرض في الربيع وتزدهر. وهنا ما لبث المتطيّرون أن أكّدوا وادّعوا، عن حقّ، أنّ كارثة ستحلّ على القسّ الجديد، لأنّ روح القسّ القديم مازالت حيّة تهيمن على الكنيسة. بل إنّ الكثيرين ما زالوا يزعمون أنّه لم يمت أصلاً، وأنّه يعيش هنا في مسكن تحت الأرض متّصل بالنهر. الحقيقة أنّي لم أصدّق البتّة مثل هذه الأقاويل، كما أنّي لم أسمع البتّة، هنا، أيّ صوت غريب. إنّنا نعيش هنا منذ سبع سنين، أنا وابني باولو، كما لو أنّنا نعيش في دير صغير. كان باولو حتّى وقت قصير يعيش كالطفل البريء، يدرس ويصلّي ويعمل على ما فيه خير رعيّته. في بعض الأحيان كان يعزف الناي. كان صافي الذهن، رغم أنّه لم يكن مرح الطباع. كانت سبع سنين قضيناها في سلام ووفرة، كأنّها السنون التي تحكي عنها التوراة. ولم يكن ابني باولو يشرب ولا يسكر ولا يذهب للصيد ولا ينظر إلى امرأة. كان ينفق كلّ النقود التي يدّخرها على عمليّات ترميم الجسر تحت البلدة. لقد أصبح عمر ابني باولو الآن ثمان وعشرون سنة، لكن ها هي اللعنة تحلّ عليه. لقد أوقعته امرأة في شباكها. أيّها السيّد مونسينيور، أيّها الأسقف، أبعدنا عن هذا المكان، أنقِذ ابني باولو، وإلا فإنّه سيضيّع روحه مثلما ضيّعها القسّ القديم. كما يجب إنقاذ المرأة أيضاً، فهي في نهاية الأمر امرأة وحيدة، معرّضة هي الأخرى للفتنة التي تمليها الوحدة في بيتها، والوحشة في هذه البلدة التي لا يوجد فيها شخص واحد جدير بمصاحبتها. أيّها السيّد مونسينيور، أيّها الأسقف، إنّ سيادتك تعرف هذه المرأة، فهي التي استضافتك مع كلّ حاشيتك عندما جئتم في زيارة رعويّة. إنّها تملك في ذلك البيت الواسع كلّ ما تحتاجه وتريده! والمرأة غنيّة، مستقلّة، وحيدة، وحيدة بالفعل! لها إخوة وأخت، لكنّهم بعيدون عنها، متزوّجون ويعيشون في أمكنة أخرى. وهكذا بقيت وحيدة هنا، وهي التي تشرف على البيت وعلى الثروة،

ولا تخرج إلا نادراً. لم يكن ابني باولو، حتّى وقت قريب، يعرفها. كان أبو المرأة رجلاً مختلفاً، نصفه سيّد محترم ونصفه الآخر فلاح مبتذل، صيّاد وزنديق. يكفي أن يقال إنّه كان صديقاً للقسّ القديم. ولم يكن من روّاد الكنيسة. لكنّه استدعى خلال مرضه الأخير ابني باولو، فعمل ابني باولو على رعايته حتّى لحظة موته. بل ونظّم له جنازة لم يجرِ مثلها في هذه الأرجاء. ولم يتغيّب عن حضورها أحد من سكّان هذه القرية، ولا حتّى الرضّع الذين مازالوا في أحضان أمّهاتهم. واظب ابني باولو بعدها على زيارة هذه المرأة، ابنته، وكانت هي الوحيدة التي بقيت في البيت. كانت هذه اليتيمة تعيش وحيدة، بصحبة خادمات سيّئات. فمن يهديها؟ ومن ينصحها؟ ومن يساعدها إن لم نساعدها نحن؟".

وهنا سألتها المرأة الأخرى:

"لكن هل أنت متأكّدة، يا ماريّا مادّالينا؟ هل أنت متأكّدة بالفعل من هذه الأفكار؟ هل يمكنك أن تقولي أمام الأسقف ما قلته لتوّكِ عن ابنك وعن تلك المرأة، وهل تملكين براهين على أقوالك؟ وإذا لم يكن هذا صحيحاً؟".

إلهي، يا إلهي!

أخفت وجهها بين كفّيها، فرأت حالاً ابنها باولو مع المرأة، في غرفة في الطابق الأرضيّ من البيت القديم. غرفة واسعة متصلة بالبستان، في سقفها قبّة على أقواس، أرضها من الإسمنت المصقول والمطعّم بحصى بحريّ، وفيها مدفأة مبنيّة داخل أحد الجدران، كان حولها كرسيّان وأمامها أريكة قديمة. الجدران مطليّة بالكلس ومزيّنة بالأسلحة، وبرؤوسٍ محنّطة لغزلان بقرونٍ، وبلوحات اهترأ قماشها

الأسود ولم يعد يظهر منها إلا، هنا وهناك في الظلّ، أيدٍ بلون أحمر ترابيّ، وأطراف وجوه أو جديلة امرأة أو بعض الفواكه.

كان باولو والمرأة جالسيْن أمام النار متشابكي الأيدي...

"يا إلهي!" كرّرت المرأة بأنينٍ باكٍ.

حاولت التهرّب من هذه الرؤية الشيطانيّة بأن استوحت رؤى أخرى: ذكرياتها. ها هي الغرفة نفسها تُضاء بضوء مخضرّ، يتسلّل من النافذة المحميّة بالحديد والمفتوحة على البستان، وكذلك من فتحة الباب، الذي تلمع وراءه أوراق البستان، الرطبة بندى الخريف. هبّت نسمة هواء، فحركت بعض أوراق الشجر اليابسة المرميّة على الأرض، وهزّت سلاسل المصباح النحاسيّ القديم، المسنود فوق المدفأة.

ظهرت من خلال باب موارب غرفٌ أخرى، مظلمة بعض الشيء، ومغلقة النوافذ.

كانت هي، هناك تنتظر، ومعها سلّة من الفواكه، هديّة، أرسلها ابنها باولو إلى سيّدة البيت. جاءت السيّدة، تكاد تجري ولكن بشيء من الحذر والريبة، جاءت من الغرف المظلمة، ترتدي ملابس سوداء، وجهها شاحب، مضغوط بين كتلتين من جدائل شعرها الأسود، ويداها بيضاوان، هزيلتان، تبرزان في الظلّ شبيهتين بتلك الأيدي المرسومة في اللوحات المعلّقة.

عندما أنار ضوء الغرفة كامل جسمها، ظهر ما في شخصها من المراوغة والغموض. وما إن أطلّت حتّى حدّقت عيناها الكبيرتان الكثيبتان بسلّة الفواكه الموضوعة على الطاولة، ثمّ ألقت نظرة أخرى عميقة، أحاطت بالمرأة التي تنتظر. ابتسمت بعدها ابتسامة عجلى،

أضاءت فمها الحزين والمثير، وكانت تنمّ عن السعادة والفرح بمقدار ما كانت تنمّ عن الازدراء. في تلك اللحظة ثارت في نفس الأمّ أولى الشكوك، رغم أنّها لم تعرف لذلك سبباً.

أجل، لم تكن تعرف وقتها لذلك سبباً. لكنّها كانت تذكر بأيّة حفاوة استقبلتها الطفلة، وكيف أجلستها قربها وسألتها عن أخبار باولو. سمّته باولو وكأنّه أخوها، لكنّها لم تعاملها كأمّ لهما، بل كمنافسة إلى حدٍّ ما، منافسةٍ يجب تملّقها وتخديرها.

عملت على تقديم القهوة لها في صينيّة فضيّة كبيرة، قدّمتها خادمة حافية القدمين، وجهها ملثّم كالنساء العربيّات، ثمّ حدّثتها عن أخوين لها بعيدين من أصحاب النفوذ، وافتخرت بهما، دون أن تبدي ذلك. مثّلتهما كأنّها بين عمودين يسندان بناء حياتها المنفردة. قادتها بعد ذلك لمشاهدة البستان من خلال باب الغرفة.

رأت ثمار التين القرمزيّة المغطّاة بغبار فضّيّ، والأجاص، وعناقيد العنب التي كانت تظهر ذهبيّة اللون بين خضرة الأشجار البرّاقة وبين الكروم. لماذا أرسل باولو إذن هديّة من الفواكه لمن يملك منها الكثير؟

أحاطت بالأمّ الظلالُ المرتعشة التي تخيّم على الدرج، فبدأت باستعادة تلك النظرات الساخرة والناعمة، التي رمتها بها الطفلة وهي تودّعها. تذكّرت كذلك طريقة إسبالِ جفنيها الثقيلين، وكأنّها لا تجد أسلوباً آخر لإخفاء المشاعرِ التي تشفّ عنها مقلتيها.

ذكّرتها عيناها بباولو. ذكّرها به كذلك اندفاعُها في الإفصاح بصدق عن أسرار نفسها، قبل الإسراع في إخفائها من جديد. كان الشبه شديداً بينهما، بحيث أنّها لم تشعر، خلال الأيّام التالية، بأيّة

بغضاء نحو تلك المرأة التي كانت تقوده نحو الخطيئة، بل إنّها سعت لتجد طريقة تساعد على إنقاذها، كما لو أنّها ابنتها حقاً. هذا رغم أنّ سلوك ابنها باولو كان يضاعف شكوكها، ويجعلها شكوكاً رهيبة ومرعبة.

لكنّ الخريف انقضى، وانقضى الشتاء وراءه ولم يحدث ما يعمل على تأكيد شكوكها. أمّا عندما عاد الربيع، وبدأت رياح آذار تعصف، فقد استأنف الشيطان عمله. وبدأ باولو يخرج خلال الليل، ليذهب إلى البيت القديم.

"ماذا عليّ أن أفعل إذن كي أنقذهما؟"

أجابتها الريح في الخارج بضربٍ على الباب، وكأنّما لتسخر منها.

تذكّرت عندها أنّ الرياح العاصفة داهمتها أيضاً عندما جاءت مع ابنها باولو إلى هذه البلدة، بعد أن تمّ تعيينه قسّاً. وكانت قد أمضت عشرين سنة من عمرها وهي تعمل خادمة، تقاوم كلّ مغريات الحياة، وتحرم نفسها من المحبّة ومن الخبز، لتربّي فتاها المسكين أحسن تربية، وتعطيه أحسن قدوة.

أجل، كان الوقت ربيعاً أيضاً. لكنّ أحزان الشتاء خيّمت حينئذ من جديد على جميع أنحاء الوادي. فكانت أوراق الشجر تنكمش، والأشجار تنحني، وكأنّها تنظر بخوف فيما حولها، لتراقب الغيوم السوداء البرّاقة وهي تتراكض في أنحاء الأفق وتتدافع فيما بينها، كما تتدافع الجيوش في المعركة. كما كانت تتساقط حبّات البرَد الكبيرة، شبيهة بِكُراتٍ ضخمة، لتثقب أوراق الشجر الناعمة.

عند المنعطف، وفي المكان الذي تطلّ الطريق فيه على الوادي، قبل أن تبدأ بالانحدار نحو النهر، ثارت الرياح بقوّة، وضربت الركّاب

بعنفٍ، فحرنت الخيل، وتوقّفت في مكانها تحمحم، وقد نصبت آذانها من شدّة الخوف. وفي الواقع فقد كانت الرياح تهزّ الألجمة كما لو أنّ قطّاع طرق أمسكوا برقاب الخيل ليهاجموا الركّاب. حتّى باولو الذي بدا قبلها كأنّه يتسلّى، بدأ يصرخ بلهجة تعبّر عن بعض التطيّر:

"لابدّ أنّ روح القسّ القديم استشاطت غضباً وتريد الآن أن تعيدنا إلى الوراء".

كانت الرياح تسرق الكلمات من فمه، وتذروها بعيداً. حاول أن يبتسم سخريةً، فابتسم نصف ابتسامة كشفت عن أسنانه في النصف اليساريّ من فمه. ثمّ اصطبغت نظراته بالحزن عندما نظر إلى البلدة التي تجلّت أمامه، كأنّها مرسومة في لوحة مسنودة على منحدر أخضر، فوق شريط النهر الهائج، وتحت ظلّ المرتفع المحمّل بالغيوم.

هدأت الرياح بعض الشيء بعد أن تجاوزوا النهر. تجمّع في ساحة الكنيسة أهالي البلدة الذين كانوا ينتظرون قدوم القسّ الجديد، كما لو أنّه المسيح المنتظر.

ها هم الشباب منهم يتجمهرون فجأة في جماعات، ويتوجّهون حتّى شاطئ النهر للترحيب بالقادمين.

نزلوا كسرب من النسور الجبليّة، فتحرّك الهواء على وقع صرخاتهم.

عندما وصلوا قرب قسّهم تحلّقوا حوله، وساقوه منتصراً وهم يطلقون من حين لآخر طلقات بنادقهم، ليظهروا فرحتهم. تردّد صدى صراخهم وطلقاتهم عبر الوادي. وبدورها هدأت الرياح أيضاً، بل وتراجع الطقس السيّئ.

شعرت الأمّ بقلبها يختلج بالكبرياء وينتفخ بالزهو، وهي تعيش ساعات النصر الماضية تلك، هذا رغم ما كانت تعانيه من ألم وحزن. بدا لها أنّها تمشي في منامها، وأنّها محمولة على أكفّ أولئك الفتية الصاخبين، وكأنّها فوق غيمة مشتعلة. وكان ابنها باولو بقربها، مثل طفل صغير، بهيئة تكاد تكون إلهيّة، خاصّة وأنّ أولئك الرجال الأقوياء ينحنون له، وهم يحيطون به.

وصعوداً، صعوداً. إلى مكان أجرد، إلى أعلى مكان على ذلك المرتفع، حيث تبرق نيران الفرح، يبرق اللهب وتخفق ألسنته كأنّها رايات حمراء منتصبة أمام الغيوم السوداء، فتنير البلدة الرماديّة والمنحدرات المعشوشبة وأشجار الحور والطرفاء المرصوفة على طول الدرب.

وصعوداً، صعوداً. ينتصب على شرفة ساحة البلدة جدارٌ آخر قوامه أجسامٌ ممتدّةٌ متطلّعة، ورؤوسٌ توّاقةٌ قلقة: محدّبةٌ رؤوسُ الرجال المغطّاة بقبّعات مدبّبة، ومحاطةٌ رؤوسُ النساء بمناديل تتطاير أطرافها. بينما كانت تلمع عيون البنات الصغيرات، المباركات في هذا المشهد. كما كان هناك على حافّة المرتفع هيئات رشيقة سوداء لفتية يذكون النيران كأنّهم الشياطين.

عبر باب مصلّى الكنيسة المفتوح على مصراعيه ظهرت ألسنة اللهب المتمايلة وهي تتصاعد من الشموع، وبدت الشموع كأنّها زهور نرجس تتقاذفها الرياح. كما كانت النواقيس تصدح بأنغام مديدة. بينما تجمّعت الغيوم في السماء الفضيّة المحيطة ببرج الكنيسة، وكأنّها توقّفت تنتظر، لتشاهد وترى.

ارتفعت صرخة من بين الحشد الصغير.

"ها هو! ها هو! كأنّه قدّيس!"

لم يكن فيه من القدّيسين إلا المظهر الهادئ، لم يكن يتكلّم، لم يردّ على التحيّات، ولم يبد أنّه انفعل أمام هذه التظاهرة الشعبيّة. لم يفعل سوى أنّه ضغط على شفتيه، وأسبل جفنيه، وقوّس حاجبيه، كما لو أنّ جبينه يضغط عليهما. ما إن أصبحا وسط الجمهور، حتّى رأت الأمّ أنّ ابنها مال بغتةً على جانبه كما لو أنّه سيقع، لكنّ رجلاً سارع وأسنده، فنهض في الحال وأسرع نحو مصلّى الكنيسة الصغيرة، حيث ركع أمام المذبح ورتّل أوراده.

وردّدت النسوة وراءه وهنّ يبكين.

لم يكن نحيب تلك النسوة البائسات إلا تعبيراً عن الحبّ والأمل وتطلّعاً نحو خيرات غير أرضيّة. في ساعة الحزن تلك، شعرت الأمّ أنّ نحيبهنّ يتصاعد من أعماقها. ابنها باولو! ابنها باولو! وحبّه وهواه، وتطلّعه نحو خيرات غير أرضيّة، ها هي تؤخذ جميعها منه لتلمّها الأرواح الشرّيرة، بينما تقف هي في آخر الدرج، كما لو أنّها في أعماق بئر، من غير أن تسعى لإنقاذه.

شعرت بأنّها تختنق، انتفخ قلبها وأصبح صلباً قاسياً كالحجر، حتّى إنّه أوجعها وآلمها. نهضت لتتمكّن من التنفّس بشكل أفضل، صعدت وتناولت المصباح فرفعته، ونظرت فيما حولها في غرفتها الصغيرة، العارية إلا من سريرها الخشبيّ والخزانة المسوّسة، اللذين يسلّيانها كأنّهما صديقان قديمان.

غرفة خادمة: هذا هو حال غرفتها. وهي لم تحاول أن تغيّر من وضعها، لأنّها اكتفت بكونها أمّاً لابنها باولو، وهذا منتهى الغنى.

مرّت عبر غرفته: بيضاء وسرير عذريّ. كانت هذه الغرفة الصغيرة مرتّبة وبسيطة ذات مرّة، مثل غرفة طفلة صغيرة. كان هو يعشق

الهدوء والصمت والنظام، وكان يحتفظ دائماً بالورد على طاولته الموضوعة أمام النافذة، لكنّه بدأ منذ حين من الوقت يهمل كلّ شيء، ويترك الدروج مفتوحة، والكتب منثورة على الكراسي، بل وملقاة على الأرض.

كانت تفوح من الماء الذي اغتسل به قبل خروجه روائحُ عطر الورد الواخزة. أمّا ثوبه الطويل فكان مرميّاً على الأرض كالظلّ الممدود: ظلّه وهو واقعٌ، ممدّد.

أنقذت تلك الروائح وذلك الظلّ الأمّ من مشاعر الإحباط، وعندما رفعت غاضبةً ذلك الثوب المرميّ، شعرت أنّ فيها من القوّة والعزم ما يكفي لرفعه هو أيضاً. ثمّ رتّبت الغرفة بعض الشيء وهي تمشي بقوّة، دون أن تحاول تخفيف قرع خطواتها الصادرة عن حذائها الحقلي. قرّبت من الطاولة كرسيّ الجلد الذي يجلس عليه للدراسة. وضربت قوائمه بالأرض، وكأنّها تأمره بأن يبقى في محلّه، لأنّ ابنها سيعود قريباً إلى مكانه. ثمّ نظرت إلى المرآة الصغيرة المعلّقة إلى جانب النافذة...

لا يُسمح عادة أن يكون في بيت الكاهن مرايا. فهو يجب أن يعيش دون أن يتذكّر أنّ له جسماً. من هذه الناحية، كان القسّ القديم يراعي الأوامر والقوانين، بل كان يُرى من الشارع وهو يحلق ذقنه، وينظر إلى وجهه في زجاج نافذة مفتوحة، وضع خلفها قطعة قماش سوداء! أمّا باولو فكان ينجذب إلى المرآة، كما ينجذب المرء إلى بئر ماء يرى فيه وجهاً يضحك، ما إن يقترب منه حتّى يسقط فيه.

انتزعت المرآةَ الصغيرة عن المسمار المعلّقة به، لأنّها كانت تعكس وجهّها القاتم الغاضب، وتهديدَ عينيها. شعرت عندها

بالغضب يتصاعد داخل نفسها. فتحت النافذة على مصراعيها لتدخل الريح وتطهّر الهواء. فبدا أنّ الكتب والأوراق فوق الطاولة بدأت تنتعش أيضاً، فتطايرت هنا وهناك لتصل إلى أبعد زوايا الغرفة، بل إنّ غطاء السرير ارتجف في كلّ أطرافه، وانحنى لهبُ المصباح خيفةً ومهابة.

لملمت الأوراق وأعادتها إلى الطاولة. رأت كتاب التوراة مفتوحاً على صورة ملوّنة لطالما أحبّتها، فانحنت لتتأمّلها. ها هو المسيح الراعي مع أغنامه، على نبع وسط الغابة، بينما ظهرت في زرقة الأفق البعيد، بين جذوع الأشجار، مدينة مقدّسة: إنّها مدينة الخلاص.

أجل، كان في الماضي يسهر الليل وهو يدرس، كانت النافذة التي أمامه تنفتح على المرتفع المزدهر بالنجوم، وكانت البلابل تغرّد له.

خلال السنة الأولى من الإقامة في البلدة كان يتحدّث عن رغبته بالسفر والعودة إلى العالم، ثمّ بدا كأنّه قد خُدّر وغفا في ظلّ المرتفع، وبين حفيف الأشجار. وهكذا انقضت سبع سنوات، ولم تعمل الأمّ على تشجيعه على الانتقال، لأنّهما كانا سعيدين هناك، في البلدة التي بدت لها أجمل بلدة على وجه الأرض، لأنّ ابنها باولو كان يُعتبر فيها بمنزلة المسيح والملك.

عادت وأغلقت النافذة وعلّقت المرآة التي كانت تعكس وجهها الذي انقلب شاحباً، وعينيها المبلّلة بالدموع.

تساءلت مرّة أخرى إن لم تكن مخطئة. قبل أن تخرج، التفتت نحو الصليب المعلّق على الجدار أمام المِركَع. عندما رفعت المصباح لتوضّح الرؤيا، تحرّكت الظلال، وظهر لها المسيح، هزيل الجسم، عارياً، ممدّداً على الصليب، حنى رأسه كأنّما ليصيخ السمع إلى ما

تريد أن تقوله له. سقطت عندها دموعٌ غزيرة من عينيها على وجهها، وبلّلت ثيابها، لكنّها ظنّتها قطرات دم. "إلهي، أنقذنا جميعنا، وأنا بين الجميع، أنا أيضاً. أنت الشاحب بلا دماء، وجهُك تحت تاج الأشواك، حلوٌ جميل، مثل وردة في شوك العليق، أنت الذي تعلو فوق أهوائنا، أنقذنا جميعنا".

خرجت بسرعة. نزلت من جديد على الدرج. اجتازت الغرف الأرضيّة. استيقظت على ضوء المصباح بعض حشرات الذباب، وبدأت تطنّ حول قطع الأثاث القديم.

كان عصفُ الرياح يتسرّب عبر النافذة الصغيرة، في أعلى غُريفة الطعام، ويختلط بصوتٍ يشبه صوت وقع المطر، لكنّه في الحقيقة كان حفيف الأشجار، وهي تتضارب فيما بينها، فوق المرتفع. اجتازت غرفة الطعام وانتقلت إلى المطبخ، وجلست على كرسيّ أمام المدفأة، حيث طغى الرماد على النار.

كان كلّ شيء يرتجف في المطبخ أيضاً، بسبب الرياح المتسرّبة من الشقوق. فحسبت أنّها تجلس في زورق في عرض بحر هائج وليس في هذا المطبخ الطويل، ذي السقف المنخفض المائل، المدعّم بعدد كبير من العوارض الخشبيّة الكبيرة والصغيرة التي سوّدها الدخان.

ومع أنّها كانت مصمّمة على الانتظار، ورجوع ابنها لتبدأ المعركة في الحال، فإنّها عادت مرّة خرى إلى ظنونها بأنّها على خطأ.

رأت أنّ من غير العدل أن يصيبها الله بمثل هذا العذاب. وهنا بدأت باستعادة حوادث ماضيها البائس، وبدأت تنقّب خلال أيّامها السالفة، علّها تجد سبباً مهّد لما تلقاه اليوم من عذاب. تجمّعت كلّ

أيّامها في حضنها، فوجدتها قاسية صافية، مثل حبّات المسبحة التي تجري بين أصابعها المرتعشة.

إنّها، هي، لم ترتكب أيّ خطأ، إن لم يكن في أفكارها، أحياناً.

تذكّرت نفسها عندما كانت فتاة صغيرة، يتيمة، تعيش في بيت أقربائها الفقراء. كان جميع الناس في تلك البلدة يقسون عليها، وكانت تمشي حافية القدمين، وتحمل أحمالاً ثقيلة: حين تذهب لتغسل الثياب على النهر، أو لتنقل القمح ليُطحن في المطحنة. هناك كان يوجد رجل تدعوه العمّ، كان عجوزاً أو كاد، يعمل خادماً في مساعدة الطحّان. كان كلّما رآها في المطحنة، ولم يجد أحداً يراقبه، يتعقّبها حتّى تصل إلى مكان تكثر فيه الشجيرات الكثيفة وبقع الطرفاء، هناك كان ينهال عليها بالقبلِ، ويخز وجهها بشعر لحيته الخشن، ويطمرها بالطحين.

عندما قصّت القصّة في البيت، منعتها عمّاتُها من الذهاب إلى المطحنة. أمّا ذلك الرجل الذي لم يكن يزور البلدة أبداً، فقد عاد ذات يومِ أحد إلى البيت، وقال إنّه يريد أن يتزوّج البنت. ضحك أقرباؤه وأوسعوه دفعاً، بل ومرّروا المكنسة على كتفيه، ليزيلوا عنهما الطحين. لم يبال بهم، بل تركهم يصنعون به ما يشاؤون، بينما واصل التحديق بالفتاة بعينين برّاقتين. قبلت هي الزواج به، وإن بقيت في بيت أقربائها. ثمّ عادت لتذهب كلّ يوم إلى المطحنة، فكان زوجها، الذي واظبت على مناداته بالعمّ، يقدّم لها كميّة صغيرة من الطحين، بالخفية عن الطحّان.

ذات يوم كانت راجعة بالطحين في مئزرها، فشعرت أنّ هناك شيئاً يتحرك في وسطه. ارتعبت وأفلتت أطراف المئزر، فانهمر

الطحين وغطّى قدميها. تهاوت وجلست على الأرض، وهي تشعر بالدوخة. حسبت أنّه زلزال، لأنّها رأت بيوت البلدة تنهار، بينما تتدحرج أحجارها على الطريق. فتدحرجت هي أيضاً على العشب الذي ابيضّ بسبب الطحين. ثمّ نهضت، وبدأت تجري وهي تضحك، وإن بقي بعض الخوف يلازمها: لقد اكتشفت أنّها حامل.

سرعان ما أصبحت أرملة. ولم يكن ابنها باولو قد بدأ ينطق بالكلام، رغم أنّ عينيه البرّاقتين تريدان أن تطيرا. بكت على زوجها بكاءها على قريب صالح، وليس على زوج، ولهذا فسرعان ما وجدت عزاءها، عندما عرضت عليها إحدى قريباتها أن تأتي معها إلى المدينة، لتعمل خادمة هناك.

"بهذا تتمكّنين من الإنفاق على طفلك في البداية، وتتمكّنين بعدها من استدعائه إلى المدينة لترسليه إلى المدرسة". وهذا ما فعلته، فعاشت وعملت من أجله، ومن أجله فحسب.

لم تنقصها فرص ارتكاب الخطايا، أو على الأقل فرص الحصول على متعةٍ ما، ولم تنقصها كذلك الرغبة في ذلك. من السادة إلى الخدم، ومن القرويّين إلى الراقين، من منهم لم يجرِ وراءها أو كاد، كما فعل عمّها مرّة بين أشجار الطرفاء؟ لقد خُلق الرجل صيّاداً، وخلقت المرأة طريدة، ومع هذا فقد تمكّنت من الهروب من الكمائن، وقد حافظت على نفسها تقيّة نقيّة لأنّها كانت تعتبر نفسها أمّاً لكاهن. فلماذا يا إلهي يحلّ عليها هذا العقاب الآن؟.

حنت رأسها المرهق، فسقطت على حضنها الدموعُ التي كانت تسيل على وجهها، واختلطت بحبّات المسبحة.

اختلطت أيضاً الأفكار في رأسها. حسبت أنّها ما زالت في ذلك المطبخ الكبير الحارّ، والملوّث بأنواع الدسم، التابع للمدرسة التي خدمت فيها لعشر سنين، وحيث أفلحت في تسجيل ابنها باولو. أشخاص سود كانوا يعبرون بصمت ويلامسون الجدران المصفرّة، بينما تسمع في الممرّ المجاور القهقهات المخنوقة وأصوات اللكمات التي كان يتبادلها الطلبة في الخفاء. كانت مرهقة حتّى الموت، جالسة قرب نافذة تطلّ على رواق مظلم، خرقة التنظيف على ركبتها، لكنّها لا تقوى من شدّة التعب على تحريك إصبع من أصابعها.

كانت تنتظر باولو حتّى في أحلامها، ذلك عندما خرج خفية من المدرسة، ومن غير أن يخبرها إلى أين سيذهب.

"إذا انتبهوا لذلك، فسيطردونه في الحال"، هكذا فكّرت. وانتظرت بقلق، حتّى ينقطع الصخب حولها، وتتمكّن من إدخاله بالسرّ.

استيقظت عل حين غرّة، نظرت حولها فرأت من جديد مطبخ منزل الكنيسة، الضيّق الطويل، المطروق بالرياح كأنّه زورق، لكنّ الانطباع الذي ولّده الحلم القصير كان قويّاً بحيث حسبت أنّ خرقة التنظيف ما زالت على ركبتها، وأنّها ما زالت تسمع قهقهات الطلبة المخنوقة وأصوات اللكمات التي كانوا يتبادلونها في الممرّ.

لحظة، واستعادها الواقع إلى الواقع، فبدا لها أنّ باولو قد عاد خلال غفوتها القصيرة بعدما أفلح في التملّص من انتباهها.

وبالفعل، فقد سمعت، بين أصوات قرع الرياح وهبوبها، صوت خطوات تتقدّم داخل البيت. هناك من يمشي، من ينزل على الدرج. يعبر الغرف الأرضيّة، يدخل إلى المطبخ.

ظنّت أنّها ما تزال في حلمها. لكن ها هو قسّ قصير بدين، سوّدت وجهه لحيةٌ لم يحلقها منذ أيّام. لقد انتصب أمامها، وهو ينظر إليها ويبتسم. كان فمه بلا أسنان تقريباً، أمّا أسنانه المتبقّية فقد اسودّت بسبب كثرة التدخين. كانت في عينيه الفاتحتين رغبةٌ بالتهديد، لكن بغرض السخرية ليس إلا. عرفته في الحال: إنّه القسّ القديم. ومع هذا فلم تشعر بالخوف منه.

"على كلّ هذا ليس إلا حلماً". فكّرت، وفي الحقيقة فإنّها لم تفكّر بهذا إلا لتشجّع نفسها، بينما كانت الرؤية حقيقيّة.

"اجلس"، قالت وهي تنحّي كرسيّها لتفسح له مكاناً قرب المدفأة. فجلس، وهو يرفع شيئاً ما ثوبه الطويل، بحيث ظهرت جواربه المثقوبة ذات اللون الأزرق الباهت.

قال لها ببساطة: "بما أنّك جالسة لا تفعلين شيئاً، فبوسعك يا ماريّا مادّالينا أنّ ترقّعي لي جواربي. فليس هناك امرأة تعتني بي". ففكّرت في قرارة نفسها: "هل هذا هو القسّ الرهيب؟ لا بدّ أنّ هذا حلمٌ داخل الحلم".

فحاولت أن تسخر منه.

"إذا كنت ميّتاً فما حاجتك إلى الجوارب؟".

"من يضمن لك أنّي ميّت؟ إنّني حيّ، بالفعل. وها أنذا هنا. وسرعان ما سأطرد ابنك، وأطردكِ أنتِ معه، سأطردكما من كنيستي هذه. لقد ارتكبتما حماقة عندما أردتما المجيء إلى هذا المكان. كان من الأفضل أن تعلّمي ابنك مهنة الأب. لكنّك امرأة طموحة، أردت أن تصبحي سيّدة في المكان الذي كنت فيه خادمة. سترين الآن أرباحك التي حقّقتِها".

"إنّنا سنغادر هذا المكان". أجابت بتواضع وحزن. "هذه هي رغبتي. وسواء كنت شخصاً حيّاً أم كنت شبحاً، فعليك أن تصبر لبضعة أيّام: لأنّنا سنغادر".

"وإلى أين تريدين أن تذهبي؟ لا فرق بين هذا المكان وغيره. لكن بوسعك أن تصغي لمن يفهم حقائق الأمور. دعي ابنك باولو وشأنه، دعيه يجري وراء مصيره. دعيه يتعرّف إلى تلك المرأة، وإلا فإنّه سيصيبه ما أصابني. فأنا لم أرغب في شبابي بمعرفة لا النساء ولا الملذّات. لأنّي كنت حريصاً أنا أيضاً على منزلتي في الجنّة. ولم أدرك أنّ الجنّة إنّما هي على الأرض. عندما أدركت ذلك، كان الوقت قد فاتني. حين لم يكن بوسع ذراعي أن تمتدّ لتقطف الفواكه من على الشجر، ولا بوسع ركبتيّ أن تنحنيان لأتمكّن من أن أروي عطشي على النبع. لذلك فقد بدأت باحتساء النبيذ، وبتدخين الغليون، بل ويلعب الورق مع فتية السوء في البلدة. كنتم أنتم من تدعونهم فتية سوء، لكنّهم ليسوا إلا فتية طيّبين يريدون أن يتلذّذوا بحياتهم كيفما استطاعوا. صحبتُهم مفيدة، تهب الدفء والمرح، كأنّهم طلبة خلال عطلتهم. غير أنّهم في عطلة على الدوام. لذلك فإنّك ترينهم أشدّ مرحاً وراحة بال من الفتية الذين يشعرون أنّ عليهم أن يعودوا بعد العطلة إلى المدرسة".

بينما كان يقول هذه الأقوال كانت الأمّ تفكّر:

"إنّه يقول هذا الكلام لأنّه يريد إقناعي بترك ابني باولو لتحلّ عليه اللعنة. لا بدّ أنّ صديقه وسيدّه الشيطان هو الذي أرسله. عليّ أن أبقى على حذر".

ومع هذا فقد كانت تصغي إليه بسرور، وإن رغماً عنها. بل وكانت

تكاد أن تعطيه الحقّ فيما يقول. فكّرت أنّه يمكن لابنها باولو أن يضيع رغم ما تبذله من جهد من أجله، يمكن له أن "يتمتّع بالعطلة"، وهكذا كان قلبها، قلب الأمّ، يبحث عن حجج تبرّر سلوكه.

"يمكن أن تكون على حقّ"، أجابته بمزيد من الخضوع والحزن. ثمّ أضافت بشيء من التصنّع: "لكنّني مجرّد امرأة بائسة جاهلة، ولا أفهم من هذا شيئاً، وإن كنتُ على ثقةٍ من أمر واحد، وهو أنّ الله وضعنا في هذا العالم لكي نعاني ونتعذّب".

"لقد وضعنا الله في هذا العالم لكي نتمتّع، وهو يجعلنا نتعذّب ليعاقبنا حين لا نعرف كيف نستمتع. هذا هو الصحيح، أيّتها المرأة الحمقاء الغبيّة. لقد خلق الله هذا العالم بكلّ محاسنه وجماله، ثم أهداه للإنسان ليستمتع به. هذا أسوأ بالنسبة لأولئك الذين لا يفهمون. على كلٍّ، لا يهمّني أن أقنعك، كما تظنّين. كلّ ما يهمّني هو أن أطردكما بعيداً من هنا، أنت وابنك باولو. لقد أسأتما الاختيار حين قرّرتما المجيء إلى هذا المكان".

"سنذهب، لا تشكّن في هذا، سنذهب سريعاً. هذا ما يمكنني أن أعد به. إنّي لا أفكر إلا بهذا الأمر".

"إنّك تقولين هذا لأنّك خائفة منّي. لكن ساء ما تفعلين إن أنتِ خِفْتِني. لقد ظننتِ أنّي أنا من قيّد قدميك، ومن منع أعواد الثقاب من أن تشتعل، يمكن أنا أكون أنا ذاك، لكنّ هذا لا يعني أنّي أريد أن أسيء إليك وإلى ابنك باولو. أريد فقط أن تذهبا بعيداً. واحذري أنّك إذا لم تفي بوعدك فإنّكِ ستندمين، سأراكِ عندها ثانيةً، وسأذكّركِ بهذا الحوار بيننا. على كلٍّ سأترك لك جواربي لترقّعيها". "حسناً، سأرقّعها".

"أغلقي عينيك إذن، لا أريد أن تشاهدي قدميّ عاريتين. هاه، هاه". وضحك بينما كان يخلع حذاءه بطرف القدم الأخرى، وينحني ليخلع بعدها جوربه. "لم ترَ أيّة امرأة شيئاً من جسدي، ذلك رغم كلّ ما قيل عنّي من أقاويل كاذبة. أمّا أنت فإنّك عجوز وقبيحة لكي تكوني أولّهنّ. ها هو الجورب، وها هو الجورب الآخر. سأعود سريعاً لأستعيدهما...".

فتحت عينيها فجفلت. وجدت نفسها وحيدة من جديد في المطبخ المحاط بهدير الرياح. يا إلهي، يا لهذه الأحلام"، تمتمت وهي تتنفّس الصعداء. ومع هذا فقد انحنت لتبحث عن الجوربين، بينما خيّل إليها أنّها تسمع صوت خطى الشبح الخفيفة وهو يذهب، لكنّه لم يخرج من الباب.

ترك باولو المرأة وخرج إلى البستان، فخيّل إليه هو أيضاً أنّ هناك في الرياح شيئاً ما حيّاً، شيئاً ما غامضاً. كان فيها قوّة تدفعه، وتعود لتدفعه من جديد، وتولّد عنده إحساساً بالبرد، ألمّ به بعد حلم مشتعل. كما جعل ثيابه تلتصق بجسمه، فارتعش، لأنّ هذه الملامسة ذكّرته بالمرأة التي التصقت به في عناق المحبّة.

كانت قوّة الرياح عنيفة عند منعطف الكنيسة، حتّى إنّه اضطر للتوقّف لحظة حاني الرأس، وهو يمسك قبّعته بيد، وثيابه باليد الثانية، ليدرأ عنه الرياح. أصابه ضيق نفس، وشعر بمثل الدوّار الذي أصاب أمّه عندما أدركت أنّها حامل، وهي على منخفض الوادي.

شعر بمزيج من الاشمئزاز والنشوة يغمره، في تلك اللحظة شعر هو أيضاً بشيء رهيب كبير ينشأ في باطنه: فهو يعي الآن وعياً كاملاً هذا الشعور الذي أدركه للمرّة الأولى، أي أنّه أحبّ المرأة حبّاً جسديّاً، وأنّه مسرور ومطمئنٌّ بحبّه هذا.

واصل حتّى ساعات قليلة خلت تضليل نفسه. فادّعى أمام نفسه، كما ادّعى أمامها، أنّ حبّه لها ما هو إلا حبّ روحيّ. غير أنّه اعترف بأنّها كانت تنظر إليه، وأنّها كانت تبحث منذ لقائهما الأولّ بعينيها عن عينيه، بنظرات كانت تستجدي المساعدة والحبّ.

تركَ نفسه تنجرّ شيئاً فشيئاً وراء تلك النظرات. كان قد اقترب منها بدافع الرأفة والشفقة، لكنّ الوحدة التي كانت تحيط بهما كليهما، دفعت كلا منهما نحو الآخر.

بعد أن تقصّت العيون بعضها بعضاً، شدّت اليدان أيضاً على اليدين، فتبادلا في تلك الليلة القبل. وها هو دمه، الذي بقي لسنين كثيرة هادئاً مطمئنّا، يتوهّج الآن كما لو أنّه سائل مشتعل. فاستسلم الجسد وانهزم، لأنّه كان هو المنتصر.

عرضت المرأة عليه الهروب من البلدة، وأن يعيشا ويموتا سويّة. قَبِل العرضَ وسط نشوةٍ عارمة، واتّفقا على اللقاء خلال الليلة التالية لتدبير التفاصيل.

لكنّ حقيقة العالم التي جابهته الآن خارج البيت، وهبوب الرياح التي بدا أنّها تسعى لتعريته، كشفت عن عينيه خمار التضليل والخديعة.

توقّف لاهثاً أمام باب الكنيسة. شعر أنّ كلّ أطرافه قد تجمّدت. تهيّا له أنّه يقف عارياً فوق البلدة، وأنّ جميع رعايا كنيسته البؤساء الغارقين في نومهم، وسبات تعبهم، سيشاهدونه الآن عاري الجسم وأسود اللون في حلكة خطيئته.

ومع هذا فقد واصل التفكير في أفضل طريقة يمكن له أن يهرب فيها مع المرأة. وكانت قد أخبرته أنّها تملك الكثير من المال...

شعر بالرغبة في أن يرجع حالاً إليها ليثنيها عن رأيها، وفي الواقع فقد خطا بضعة خطوات على طول الجدار الذي مشت قربه أمّه قبل قليل، وما لبث أن تراجع كالتائه الضائع، ثمّ خرّ راكعاً أمام باب الكنيسة وسند عليه جبهته وهو ينتحب بكاء.

"يا إلهي، أنقذني".

سمع خلفه حفيف طرف معطفه الأسود وهو يخفق، وبقي على وضعه عدّة دقائق، كأنّه عُقابٌ حيٌّ مسمّرٌ على الباب.

اشتدّت وحشة نفسه وهي تتخبّط بلهاث أشدّ عنفاً من عصف الرياح على المرتفع. صراع سامٍ بين غرائز الجسد العمياء وإملاءات الروح.

نهض بعدها، من غير أن يعرف حقّ المعرفة أيّاً منهما قد انتصر. لكنّه شعر أنّه أصبح أشدّ وعياً وقادراً على المحاكمة. فقال لنفسه إنّ ما يخيفه حقّاً هي عواقب الفضيحة، أجل، إنّ خيفتها هي أكبر في نفسه من خيفة الله وحبّ الله والاشمئزاز من الخطيئة.

عندما أدرك مقدار القسوة الكامنة في هذا الحكم على نفسه، شعر بمزيد من الشجاعة، لأنّ ذلك الإدراك هو وعدٌ بالخلاص. غير أنّه عاد فأحسّ أنّه قد أصبح في نهاية الأمر متعلّقاً بالمرأة تعلّقه بالحياة نفسها. إنّه، هو نفسُه، يحملها معه، في بيته، في سريره، بل قد ينام معها، تلفّه شبكةُ شعرها الطويل المُحكمة.

شعر أنّ ألمه الظاهر يخفي فرحاً ما فتئ يشتعل ويضطرب في أعماقه، كالنار تستعر تحت الرماد.

لكن ما إن فتح باب منزل الكنيسة حتّى صعقته حزمة النور

التي تنطلق من المطبخ وتعبر غرفة الطعام الصغيرة والمدخل، ثمّ رأى أمّه جالسة أمام النار الخامدة جلسة جنائزيّة، جعلته يدرك في الحال الحقيقة كاملة، بينما اعترى قلبه شعور من الحزن والقلق لم يفارقه البتّة.

اجتاز الغرف متعقّباً حزمة النور، تعثّر على درجة مدخل المطبخ قبل أن يصل إلى المدفأة ويداه ممدودتان إلى الأمام كأنّما ليتفادى السقوط.

"لماذا لا تزالين مستيقظة حتّى الآن؟" سألها بنبرة حادّة.

التفتت الأمّ، وكان قناع ذلك الحلم مازال مطبوعاً على وجهها الشاحب، كما كانت هي ثابتة، هادئة، رغم هيئتها التي تكاد تكون حادّة الملامح، قاسية. كانت عيناها تبحث عن عينيّ ابنها بينما كان يحاول هو التهرّب من نظراتها.

"كنت أنتظرك يا باولو، أين كنت؟".

أدرك أنّه لن يجدي نفعاً غير قول الحقيقة، وأنّ أيّ كلام يقوله سيكون ضرباً من تمثيليّة ساخرة يقومان سويّة بتمثيلها. ومع هذا فكان عليه أن يكذب.

"عند امرأة مريضة"، أجاب في الحال.

بدا أنّ صوته القويّ بدّد للحظة حلمها المزعج. لحظة واحدة. وتوهّجت الأمّ بالفرح، ثمّ ما لبثت الظلال أن غطّت وجهها وتغلغلت إلى قلبها.

"باولو"، قالت بلطف وهدوء، وهي تخفض نظرها بشيء من الخجل، لكن دون مزيد من التردّد: "اقترب، يجب أن أكلّمك".

ومع أنّه لم يقترب، فإنّها تابعت كلامها همساً وكأنّها تكلّمه في أذنه: "إنّي أعلم أين كنت. كنت أسمعك منذ ليالٍ عديدة وأنت تخرج، بل إنّي تبعتك هذه الليلة، ورأيت المكان الذي دخلت إليه. باولو، فكّر بالذي تفعله".

التزم باولو الصمت، بدا كأنّه لم يسمع شيئاً. عادت الأمّ ورفعت نظرها. رأته طويلاً من فوقها، شاحباً كالأموات، ثابتاً فوق ظلّه المرسوم على الجدار، كأنّه المسيح على الصليب.

أرادت أن تسمعه يصرخ، يعترض، ويعلن براءته.

أمّا هو فقد تذكّر صرخات روحه أمام باب مصلّى الكنيسة. لابدّ أنّ الله قد سمعه، فأرسل له أمّه بالذات لتنقذه. أراد أن يستسلم، أن يسقط على حضنها، أن يتوسّل لها أن تأخذه على الفور بعيدا عن هذه البلدة. في الوقت نفسه شعر بذقنه ترتجف من الذلّ والغضب، الذلّ من رؤية مكامن ضعفه وقد اكتُشفت، والغضب من أنّه تعرّض للمراقبة والتجسّس. كما أنّه تألّم بسبب ما سبّبه لها من أحزان.

فكّر أوّل ما فكّر أنّ عليه أن ينقذ نفسه، ليس هذا وحسب، بل أن ينقذ الشكليّات أيضاً.

"ماما"، قال بعد أن اقترب منها ووضع يده على رأسها، "أؤكّد لك أنّي كنت عند أحد المرضى".

"لا يوجد مرضى في ذلك البيت".

"ليس كلّ المرضى يلزمون السرير".

"لأنتَ مريضٌ إذن بمرضٍ أشدّ من مرض المريضة التي كنت في عيادتها، ويجب عليك أن تتعالج. باولو، إنّني امرأة جاهلة،

لكنّي أنا أمّك. وعليّ أن أقول لك إنّ الخطيئة مرضٌ أشدّ فتكاً من أيّ مرض آخر، لأنّه مرضٌ في الروح. ثمّ.."، أضافت وهي تمسك بيده وتشدّه نحوها لكي ينحني ويسمعها بصورة أفضل، "..لست أنت وحدك الذي يجب أن تنقذ نفسك، فعليك يا خادم الله أن... لا تساعد على أن تضيّع هي أيضاً روحها، وأن لا تسبّب لها أيّ ضرر يمسّ حياتها".

كان قد انحنى بما فيه الكفاية، لكنّه ما لبث أن انتصب، كما ينتفض قضيب الفولاذ عندما ينتصب. لقد أصابته أمّه في صميم قلبه. أجل، إنّه لم يفكّر سوى بنفسه، خلال ساعة القلق التي مرّ بها، وبعد أن ترك المرأة.

حاول سحب يده من يدها الباردة القاسية، لكنّه شعر أنّها مشدودة بلا فكاك، خيّل إليه أنّ وثاقه شدّ إليها، أنّه اعتُقل وأنّه سيقاد إلى السجن.

فكّر بالله من جديد. إنّه الله الذي يشدّ وثاقه، ولا بدّ من الانقياد له. لكنّه شعر أيضاً بالغضب الذي يعاني منه المعتقلون المذنبون، وبيأسهم، عندما لا يجدون مفرّاً ممّا هم فيه.

"دعيني وشأني" قال بحدّة وهو يسحب يده بقوّة، "لست الآن فتى صغيراً، وإنّي أعرف الذي فيه خير لي، والذي فيه شرّ لي".

شعرت الأمّ بجسمها يتجمّد كلّه. تهيّأ لها أنّه اعترف بخطئه.

"لا، يا باولو، إنّك لا تعرف الذي فيه شرّ لك. لو كنت تعرفه لما تكلّمت كما تتكلّم".

"وكيف عليّ أن أتكلّم؟"

"عليك ألا تصرخ، وأن تؤكّد لي عدم وجود أمر ما آثم بينك وبين المرأة. إنّك لا تفعل هذا، لأنّك لا تستطيع أن تقوله في نفسك بصراحة، لذلك فمن الأفضل ألا تتكلّم البتة. لا تتكلّم، إنّي لا أطلب منك هذا، لكن فكّر فيما تفعله، يا باولو"....

وفي الواقع فقد التزم باولو الصمت، وهو يبتعد ببطء. عندما وصل إلى وسط المطبخ، توقّف، بانتظار أن تتابع حديثها.

"باولو، ليس لديّ المزيد لأضيفه، كما أنّي لا أريد أن أقول لك شيئاً بعد الآن. لكنّي سأكلّم الله بأمرك". قفز عندها وانتصب من جديد أمامها. بدا أنّه يريد أن يهجم عليها، إذ كانت عيناه تلمعان.

"كفى!" صرخ. "من الأفضل فعلاً ألا تتكلّمي مرّة أخرى عن الأمر. لا معي ولا مع أيّ كان. بل احتفظي لنفسك بتخيّلاتك.

نهضت بحزم وثبات، أمسكت به من ذراعيه وأجبرته على النظر إلى عينيها. ثمّ تركته وعادت للجلوس، عقدت يديها في حضنها، بينما إبهام يدها يستمدّ العزم بالضغط على إبهام اليد الأخرى.

انطلق ليغادر، ثمّ ما لبث أن عاد إلى الخلف، وبدأ يسير جيئة وذهاباً عبر المطبخ. كان صخب الرياح يرافق حفيف ثيابه، الذي يشبه حفيف ثياب النساء، فقد خاط لنفسه روباً من حرير، وعباءة من قماش شديد النعومة.

كان يخيّل إليه أنّ دوّاراً يعصف به. لكنّه ظنّ، في تلك اللحظة من التردّد، أنّ ذلك الحفيف يكلّمه، يقول له إنّ حياته أضحت دوّامة من الأخطاء ومن صنائع الطيش، ومن أشياء نذلة حقيرة. كان كلّ شيء يكلّمه، كانت تكلّمه الرياح في الخارج، لتذكّره بأيّام الوحدة الطويلة التي قضاها خلال صباه، وكانت تكلّمه في الداخل هيئة أمّه الحزينة، ويكلّمه وقع خطاه، بل وظلّه بالذات.

ثمّ جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً كأنّه يريد أن يدوس بقدميه على ظلّه، أن ينتصر على نفسه. بعدما ابتهل طلباً للعون والمساعدة، ركبه الغرور، ففكّر أنّه لا حاجة به لأيّة مساعدة خارقة من وراء الطبيعة. لكنّه ما لبث أن شعر بالفزع من هذا الكبرياء ومن هذا الغرور.

"انهضي واذهبي إلى سريرك"، قال لأمّه بعد أن عاد إلى جانبها. وعندما رأى أنّها لا تتحرّك، خافضة الرأس كأنّها نائمة، انحنى ليمعن النظر في وجهها، فرأى أنّها تبكي بصمت.

"ماما!".

"لا"، قالت دون أن تتحرّك، "إنّي لن أتكلّم مرّة أخرى عن الأمر. لا معك ولا مع أيّ كان. لكنّي لن أتحرّك من هذا المكان إلا لأغادر الكنيسة والبلدة ولا أعود إليهما أبداً، هذا إذا لم تقسم لي أنّ قدمك لن تطأ ذلك البيت أبداً".

نهض وقد ألمّ به شعور بالدوخة، ثمّ غلبه التطيّر مرّة أخرى، مشيراً عليه بأن يعِد بتحقيق ما طلبته أمّه، لأنّ الله نفسه هو الذي طلبه بواسطتها. في الوقت نفسه كان سيلٌ من الكلام المرّ يتدفّق نحو شفتيه، فشعر بالرغبة في الصراخ، في أن يجابه أمّه، أن يؤنّبها، لأنّها أبعدته عن بلدته، لتضعه على طريق ليست طريقه. لكن ما الفائدة من الصراخ؟ فهي لن تفهم شيئاً من هذا. هيّا، هيّا! حرّك يده ليطرد الخيالات التي كانت تمرّ أمام وجهه، ثمّ مرّر هذه اليد بغتة من فوق رأس أمّه، فخيّل إليه أنّ أصابعه المنفرجة شيئاً ما قد استطالت ليمتدّ منها شعاعٌ مضيءٌ منير.

"أمّي، أقسم لك أنّي لن أعود ثانيةً إلى ذلك البيت".

ابتعد بسرعة وهو يظنّ أنّ كل شيء قد انتهى. لقد أنقذ نفسه، واستعاد أمنه. ومع هذا فقد سمع، وهو يجتاز الغرفة المجاورة، أنّ أمّه تشهق بالبكاء، كأنّها تبكي عليه بعد أن مات.

عاد ودخل إلى غرفته، فذُهل من جديد عندما شمّ رائحة الورد، ورأى أنّ الأشياء تشرّبت بمشاعره وانصبغت بعواطفه. تجوّل جيئة وذهاباً من غير أن يعرف سبباً لهذا، فتح النافذة وترك النسيم يغمر رأسه، فشعر أنّه ورقة من آلاف أوراق الشجر المنتشرة على المرتفع، والمنتصبة في الفراغ، مرّة في الظلال الرماديّة، ومرّة أخرى في أشعّة ضياء القمر، لكن في مهبّ الريح وبين ألاعيب الغيوم. في النهاية، نهض، أغلق النافذة وقال بصوت مرتفع: "يجب أن نكون رجالاً".

استقام، فوجد أنّه أصبح صلب القناة، بارد الجسم، ملفوفاً ضمن درع من الكبرياء. لم يرغب بسماع صوت جسده، ولا آلام التضحية ولا أفراحها، ولا أحزان وحدته. لم يرغب حتّى بالوقوف أمام ربّه، ليتلقّى كلمات القبول التي تعطى للعبد اليقظ المثابر: فهو لا يريد شيئاً من أيٍّ كان. لا يريد إلا أن يتقدّم إلى الأمام، وحيداً، من دون أمل. ومع هذا فقد شعر بالخوف من الذهاب إلى سريره ومن إطفاء النور. جلس ليقرأ رسائل بولس الرسول إلى أهل كورنثوس، لكنّ الكلمات كانت تتضخّم أمامه، أو أنّها كانت تجري على طول السطور وكأنّها تحاول الفرار. لماذا كانت أمّه تبكي على ذلك الشكل، بعد أن أدّى قسمه أمامها؟ ماذا بوسعها أن تفهم؟ لا، إنّها تفهم. إنّها تفهم أحزان ابنها المميتة، وتخلّيه عن الحياة، تفهم ذلك من خلال جسدها، جسد الأمّ.

احمرّ وجهه على حين غرّة، فرفع رأسه ليصيخ السمع إلى أصوات الرياح.

"لم تكن هناك حاجة للقسم"، قال في نفسه بابتسامة سخرية. "إنّ الرجل القويّ لا يحلف. أمّا من يحلف، كما حلفتُ، فهو على استعداد لأن يحنث بقسمه، كما أنّي على استعداد لأن أحنث بقسمي".

هنا شعر أنّ المعركة قد بدأت بالفعل. فأحسّ بخوف دفعه للنهوض، ثمّ ذهب لينظر إلى نفسه في المرآة.

"ها أنت هنا، عليك وسمٌ من الله: إن لم تستسلم له، فإنّك ستقع في قبضة الشرّ، وحينها... لن تنجو".

توّجه مترنّحاً نحو سريره، استلقى عليه بملابسه، وهو يبكي. بكى بهدوء كي لا يسمعه أحد، بل كي لا يسمع هو نفسه صوت بكائه. لكنّه كان يتلوّى بشدّة في سريرته، وكان يصرخ من كلّ قلبه.

"إلهي، يا إلهي خذني إليك، احملني بعيداً".

شعر عندها براحة فعليّة، فلقد بدا له أنّه أُلقي به على خشبة النجاة، التي ستبحر به عبر بحر عذابه.

بعد أن توقّفت الأزمة، عاد ليفكّر بعقله.

فبدت له كلّ الأمور واضحة، كأنّها مشهد وراء النافذة تحت ضوء الشمس. إنّه راهب ويؤمن بالله، لقد تزوّج الكنيسة، وأقسم على انتهاج العفّة والطهارة. أي كأنّه رجل متزوّج، وعليه ألا يخون زوجته. أمّا لماذا أحبّ، ولماذا يحبّ تلك المرأة، فهذا ما لم يفهمه على وجه الدقّة. ربّما لأنّه أصبح في عمر أزمة الجسد، أي في حوالي العشرين من العمر. لقد صحا جسده بغتةً بعد غفوة طويلة قضاها بين العفّة

والتقشّف والانقطاع، بل بعد أن كان مسجوناً في زنزانةِ مراهقةٍ مديدة. لقد صحا الآن، ومال إلى تلك المرأة، لأنّها كانت الأقرب إليه. ورغم أنّها قد تجاوزت عمر الصبا الأولّ، فهي مازالت غافلة ولم تخض تجربة الحبّ، وكانت مسجونة هي الأخرى داخل جدران بيتها، مثل الراهبات في الدير.

كان حبّهما في البداية حبّا مقنّعاً بقناع الصداقة. وقعا ضمن شبكة من الابتسامات والنظرات. وكانت استحالة وقوعهما في الحبّ تقرّب بينهما أكثر فأكثر. فلا شكّ يحوم حولهما، وكانا هما بالذات يلتقيان دون أيّ حرج، دون خوف، ودون رغبة. لكنّ الرغبة كانت تتسللّ شيئاً فشيئاً بين ثنايا حبّهما العفيف، كما يتسرّب الماء داخل الجدران، التي ما تلبث أن تتعفّن وتنهار.

كانت هذه الأمور تدور في خياله. عندما هبط إلى أعماق وعيه وضميره وجد الحقيقة. شعر أنّه رغب في المرأة، وأرادها، منذ أن التقت نظراتهما للمرّة الأولى. أجل، لقد استحوذا على بعضهما منذ النظرة الأولى. وما تبقّى لم يكن إلا خداعاً، حاول بواسطته أن يبرّر الأمور أمام ناظريه.

أجل، كانت تلك هي الحقيقة. وقد قبل هو بالحقيقة. هكذا سارت الأمور، وقد سارت على هذا الشكل لأنّ هذه هي طبيعة الإنسان: التألّم، الحبّ، التزاوج، التلّذذ، والتألّم مرّة أخرى، عمل الخير وتلقّي الخير، عمل الشرّ وتلقّي الشرّ، هذه هي حياة الإنسان. لكنّ كلّ هذه الأفكار لم تزح ولا مثقالاً واحداً من الأحزان التي ترزح فوق قلبه. لقد أدرك الآن الماهيّة الحقيقيّة لهذه الأحزان، إنّها ماهيّة الموت، لأنّ التنازل عن حبّ تلك المرأة وعن الاستحواذ عليها ليس إلا تنازلاً عن الحياة بالذات.

ثمّ عاد ورأى: "أليس هذا نوعاً من الغرور؟". ما إن تنقضي لحظة اللّذة خلال الحبّ، حتّى تستعيد الروح سيادتها على نفسها، تعود، لا بل تلتجأ برغبة أشدّ وأقوى إلى وحدتها ضمن سجن الجسد الفاني الذي يغلّفها. فلماذا يجب أن نعاني بسبب هذه الوحدة؟ ألم يسبق له أن قبل بها، بل وعاشها خلال سنين طويلة؟ - حتّى لو تمكّنتُ من أن أهرب بالفعل مع آنييزِهْ وأن أتزوّجها، فإنّي سأبقى، رغم ذلك، وحيداً ضمن نفسي وذاتي...

ومع هذا، فقد قفز مرتعداً عندما نطق باسمها، وبمجرّد أن فكّر بإمكانيّة العيش معها. وهنا حسِبَ أنّ المرأة تتمدّد بطولها إلى جانبه، حسِبَ أنّه يعانقها ويشدّها إليه، وهي غضّة طريّة مثل الريشة. كلّمها قرب رقبتها الدافئة، قرب شعْرٍ مفرودٍ كأوراق الزعفران، تفوح منه روائح الدفء وروائح الشراسة. عضّ الوسادة وهو يتلو على مسامعها كلّ أبيات نشيد الأناشيد[1]، وعندما انتهى من تلاوتها قال لها إنّه سيعود إليها في اليوم التالي، وإنّه سعيدٌ بأنّه سبّب الألم لأمّه ولله، وبأنّه حلف وأقسم، وبأنّه تعرّض للندم، وتطيّر بسبب أفكار خرافيّة، وبأنّه شعر بالخوف والفزع، وبأنّه عاد إليها ليتغلّب على كلّ هذه الأمور.

ما لبث أن عاد بعدها ليفكّر بعقله.

وكما يكتفي المريض أحياناً بمعرفة تشخيص مرضه، فإنّه اكتفى بأن يعرف، على الأقلّ، السبب وراء كلّ هذا الذي يحصل معه. أراد

(1) نصّ شعري في التوراة منسوب إلى النبيّ سليمان الشهير بحكمته وبأشعاره. يعتقد أنّه كتب خلال القرن الرابع قبل الميلاد، لكنّه لم يوضع ضمن نصوص التوراة إلا بعد قرن تقريباً من الميلاد. وهو مؤلّف من 8 فصول تحتوي على قصائد حبّ في صيغة حوار بين رجل وامرأة.

عندها أن يفعل ما فعلته أمّه من قبل، عندما أرادت أن تستعيد كلّ سيرة حياتها.

كان هدير الرياح يرافق توارد ذكرياته البعيدة المشوشة. تذكّر نفسه في رواق لا يعرف مكانه، ربّما كان رواق البيت الذي كانت تخدم فيه أمّه، وكان يتسلّق الجدار بصحبة أطفال آخرين. كان هناك في أعلى الجدار قطع زجاجيّة حادة كرأس الخنجر، لكنّ هذا لم يكن يمنع الأطفال من تسلقّه حتّى لو تقطّعت أيديهم، لا بل إنّهم كانوا يتمتّعون نوعاً ما بالنظر إلى جروحهم، فكان الواحد منهم يعرض على الآخرين الدمَ الذي يسيل من جرحه، أو كان يجفّفه تحت إبطه، ظنّاً منه أنّ أحداً لن ينتبه إلى جروحه. لم يكونوا يرون من فوق الجدار إلا الطريق، ومع أنّهم كانوا أحراراً بالذهاب إلى الطريق، لكنّهم كانوا يحبّون تسلّق الجدار، لأنّ تسلّقه ممنوع عليهم. كما كانوا يتمتّعون بإلقاء الحصى على المارّة القلائل، قبل أن يختبئوا منهم. أي أنّهم كانوا يتفاخرون بفعلتهم، وإن كانوا يخافون من أن يكتشفهم أحد. كانت هناك مرّة فتاة عرجاء صمّاء خرساء، جالسة على حافّة مخزن الحطب في آخر الرواق، وكانت تراقبهم من مكانها، وكأنّها تتوسل إليهم بعينيها الكبيرتين الغامقتين القاسيتين. كان الأولاد يخافونها، لكنّهم لا يجرؤون على إيذائها، لا بل كانوا يخفضون أصواتهم كما لو أنّ بوسعها أن تسمعهم، وكانوا يدعونها أحياناً لتلعب معهم. عندها كانت الطفلة تضحك بسعادة شبه جنونيّة، لكنّها لم تكن تتحرّك من زاويتها.

مازال يذكر حتّى الآن عينيها ونظراتها العميقة المفعمة بالنور والألم والشهوانيّة، إنّه يراهما الآن في أعماق ذاكرته، كأنّ الفتاة مازالت هناك، في آخر ذلك الرواق الغامض المليء بالأسرار. بل إنّه يظنّ الآن، أنّهما تشبهان عيني آنّيزهْ.

ثمّ رأى نفسه في الطريق نفسها، حيث كان يرمي المارّة بالحصى، لكن في مقطع أبعد، عند المنعطف المؤدّي إلى حارة رطبة، آخرها مسدود بمجموعة من الأكواخ السوداء.

كان يسكن بين الطريق والحارة، في بيت أناس راقين، فيه نساء بدينات جادّات، يغلقن الأبواب والنوافذ عند حلول المساء، ولا يستقبلن إلا النساء وبعض الرهبان. كان المزاح مع هؤلاء مسموحاً، لكنّهنّ كنّ لا يضحكن إلا قليلاً، وبهدوء ورصانة، ومن أطراف الشفاه.

ذات يوم أمسك به من كتفيه واحد من أولئك الرهبان، وضغط عليه بشدّة بين ساقيه النحيلتين، ثمّ رفع له بيده وجهه الحييّ الخجول، وسأله:

"هل تريد حقّاً أن تصبح راهباً؟".

أشار إيجاباً برأسه، فتلقّى منه صورة مقدّسة، وحلوى مضغوطة، ثمّ انتحى في إحدى الزوايا ليستمع إلى أحاديث النسوة والرهبان. كانوا يتكلّمون عن قسّ كنيسة آآرّ، ويروون أنّه كان يذهب إلى الصيد ويدخّن الغليون ويطلق لحيته. مع هذا فإن الأسقف لم يكن يميل لمعارضته لأنّه من الصعوبة إيجاد قسٍّ يقبل الذهاب إلى تلك البلدة المنعزلة. كما أنّ ذلك القسّ المستهتر كان يهدّد بتقييد كلّ من يجرؤ على احتلال مكانه، قبل أن يرميه في النهر.

"والأدهى أنّ بسطاء بلدة آآرّ كانوا يحبّونه، بل ويخافونه ويخشون شعوذاته، وهناك بينهم من يعتقد أنّه المسيح الدجّال. كما قالت النساء إنّهن سيساعدنه في إلقاء خليفته في النهر".

"هل سمعت يا باولو؟ إذا صرت كاهناً ورغبت بالذهاب إلى بلدة أمّك، فعليك أن تكون مستعداً لأن تشرب من مياه النهر".

هكذا مزحت معه إحدى النسوة. اسمها ماريلينا، كانت تعتني به، وكان يحسبها وسادة محشيّة، عندما كانت تمشّطه، وتضمّه إلى بطنها الساخن وصدرها الطريّ. كان يحبّ ماريلينا هذه حبّاً شديداً، فرغم جسمها الفاسق الفاسد، كان وجهها الناعم مخطّطاً بعروق ورديّة تزيّن خدّيها. وكانت عيناها الكستنائيّتان تعبّران عن نوع من الجمال الحزين. كان ينظر إليها من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها، كما ينظر المرء إلى ثمرة يانعة فوق نبتتها. كانت هذه المرأة، هي على الأرجح، حبّه الأوّل.

بعدها، بدأت أيّام الدراسة في المعهد الدينيّ. قادته أمّه إليه ذات صباحٍ من أيّام تشرين الأوّل، مشرقٍ بضوء مزرقٍّ وفوّاحٍ بروائح عصير العنب.

ها هي الطريق الصاعدة، وفي أعلاها القوس الذي يجمع بين المعهد وبيت الأسقف، معقوداً كإطار كبير يحيط بمشهد رسمت فيه البيوت والأشجار وسلالم الغرانيت وبرج الكاتدرائيّة في الصدر. نبت العشب على الرصيف أمام بيت الأسقف. هناك كان يسير رجال على أحصنتهم، وكان لهذه الأحصنة قوائم طويلة وكواحل موبرة وحدوات برّاقة. كان يميّز هذه الأمور لأنّه كان ينظر إلى الأرض، إلى الأسفل، كان يخجل من ذاته ويخجل بأمّه. أجل، لماذا لا يصرّح بهذا ولو لمرّة واحدة؟ كان يخجل بأمّه، لأنّها خادمة، ولأنّها من بلدة البسطاء تلك. لم يتغلّب على هذه الغريزة الحقيرة إلا بعد مرور وقت طويل، وبعد أن صمّم على ذلك، وعاد يفتخر بالأمر. فكان كلّما اشتدّ به الخجل بأصله دونما سبب، كلّما حاول أن يزداد افتخاراً به أمام نفسه، وأمام الله. وهكذا اختار الإقامة في تلك البلدة البائسة والخضوع لأمّه، مع احترام رغباتها مهما كانت متواضعة، وجميع عاداتها مهما كانت تافهة.

تذكّر أمّه الخادمة، بل الأقلّ من خادمة، لأنّها كانت مُستعبَدَة تعمل كالرقيق في مطبخ المعهد، فتداعت ذكريات أخرى عن فترة المراهقة وكانت أشدّ إهانة بالنسبة إليه. لكنّ أمّه كانت تعمل خادمة من أجله. وهكذا ففي أيّام الاعتراف وتناول القربان المقدّس، كان أساتذته يجبرونه على الذهاب لتقبيل يدها، وطلب السماح منها، على ما صدر منه من إساءات في حقّها. فكانت هي تسارع لتناول الخرقة لتجفّف يدها المتشقّقة مثل الجدران القديمة، والتي تفوح منها روائح مواد الغسيل. كان هو يشعر آنئذ بالخجل، بل وبالغضب، عندما ينحني ليقبّلها. لكنّه كان يسارع بعدها ليطلب المغفرة من الله، لأنّه لم يتمكّن من طلب السماح منها.

لا بل إنّ الله تجلّى له بهذه الطريقة، أي من وراء أمّه في مطبخ المعهد المليء بروائح الرطوبة والدخان. لأنّ الله موجودٌ في كلّ مكان، في السماء وفي الأرض وفي كلّ الأشياء.

أمّا في ساعات النشوة، فكان يفكّر، تغمره الدهشة، وهو يحملق بعينيه في ظلام غرفته الصغيرة: "سأصبح قسّاً بالفعل، سأتمكّن من تقديس القربان بالألوهيّة". كان يفكّر بأمّه أيضاً، وإذا كان لا يراها، فقد كان يحبّها، وهي بعيدة، ويعترف أنّها هي سبب عظمته، لأنّها هي التي جعلت منه قسّاً يقدّس القربان ويحلّ فيه الألوهيّة، وإلا فإنّه كان سيبقى مجرّد راع يرعى الغنم، أو حمّالاً ينقل أكياس القمح إلى المطحنة، مثل كثير من أقرانه.

هكذا كان يفهم رسالته وعمله. لم يعرف شيئاً من هذا العالم، سوى احتفالات الأعياد الدينيّة الكبرى، فهي ذكرياته التي يتذكّرها بألوان جذّابة، وبعواطف حيّة. إنّها مازالت تنير نفسه، وتوقظ فيها مشاعر السرور، عندما يتذكّرها من خلال نحيبه المتواصل وأحزانه

الحاليّة. مازالت تمثل أمامه كأنّها لوحات ضخمة حيّة: ها هي موسيقى الأرغن في الكاتدرائيّة، وها هي أحاسيس غامضة غريبة تشوب احتفالات الأسبوع المقدّس، تنصهر كلّها مع آلامه الحاليّة، ومع أحزان الحياة والموت التي تضغط جسمه إلى سريره، كما عصّ الضريحُ على المسيح، المسيح الذي مات على أن يُبعث، وبقي جسده يدمي وفمه محروق بطعم الخلّ[1].

في تلك الفترات التي قضاها في اضطرابات صوفيّة، تعرّف إلى المرأة للمرّة الأولى. ما زال حتّى الآن يحسب أنّ ذلك كان مجرّد حلم، كان حلماً ليس بالجميل ولا بالقبيح، كان حلماً غريباً وكفى.

كان خلال جميع الأعياد يذهب لزيارة النسوة اللائي كان يعودهنّ في صباه. وكنّ يستقبلنه كأنّه أصبح قسّاً بالفعل، أي بطريقة عائليّة، مرحة أحياناً، لكن دائماً برصانة ورزانة. غير أنّه كان يحمرّ خجلاً عندما كان ينظر إلى ماريلينا، وكان لهذا يحتقر نفسه نوعاً ما، لأنّه ورغم أنّ المرأة ما زالت تعجبه، فإنّها كانت تبدو له في منظار واقعيّته القاسية، بدينة، رخوة بل ومشوّهة الشكل. ومع هذا فقد كان يشعر بالإثارة في حضورها، ولمجرّد رؤية عينيها.

كانت في كثير من الأحيان وخلال الأعياد، تدعوه هي وأخواتها إلى طعام الغداء. ذات مرّة في عيد أحد الشعانين[2]، كنّ يهيّئن المائدة بانتظار بقيّة المدعوّين، وبما أنّه وصل باكراً فقد خرج

---

(1) جاء في الأناجيل أنّهم قدّموا للمسيح وهو على الصليب شربة من خلّ: **"أعطوه خلا ممزوجًا بمرارة ليشرب" (متى27: 34).**

(2) عيد كاثوليكي في يوم الأحد الذي يسبق أعياد الفصح. وهو احتفال كنسيّ في ذكرى دخول المسيح منتصراً إلى القدس على ظهر حماره، بينما كانت الحشود تستقبله وهم يلوّحون بسعف النخيل.

إلى بستانهنّ، وبدأ يتمشّى حول السور تحت ظلال الأشجار المغطّاة بالأوراق المذهّبة.

كانت السماء زرقاء حليبيّة، والهواء حارّ، والرياح الشرقيّة رخوة رطبة، وكان تغريد الوقواق يصل من بعيد.

ارتفع على رؤوس أصابع قدميه لينزع، كما يفعل الأطفال، بعض الصمغ العالق على شجرة اللوز، فرأى بغتةً في زقاق وراء السور، عينين خضراوين مستطيلتي الحدقة، تحدّقان فيه. بدا كأنّهما عينا قطّ، بل إنّ المرأة بالذات، بثوبها الرماديّ وجلستها القرفصاء، على درج باب صغير أسود، في صدر الزقاق، بدت بمظهر سنّوري أيضاً. ما زالت صورتها ماثلة أمامه بكلّ وضوح، بدا له أنّ قطرة الصمغ الرخوة مازالت عالقة بين إبهامه وسبّابته، بينما لا تتمكّن عيناه المفتونتان من التحوّل عن عينيها. رأى فوق الباب الصغير نافذة صغيرة أيضاً محاطة بشريط أبيض عليه صليب صغير. كان يعرف منذ صغره، اشدّ المعرفة، ذلك الباب الصغير وتلك النافذة الصغيرة. كما كان ذلك الصليب، الموضوع ليدرأ الفتن، يثير شغفه. كانت المرأة التي تعيش في ذلك الكوخ، ماريّا باسكا، امرأة ساقطة. ها هي، هناك، ما زالت أمامه، أطراف منديلها تتكشّف عن عنقها الأبيض، وتُظْهر قرطين من المرجان يتدلّيان كقطرتي دم أحمر. كانت تستند بكوعيها على ركبتيها، وتضع وجهها الناعم الشاحب بين كفّي يديها. ولم تنقطع ماريّا باسكا عن النظر إليه، ثمّ ابتسمت له في النهاية، دون أن تتحرّك. عملت أسنانُها البيضاء المتراصّة وعيناها القاسيتان نوعاً ما، على تأكيد تعابير وجهها السنّوريّة. تركت على حين غرّة يديها تسقطان في حضنها، قبل أن ترفع رأسها، وترسم تعابير جديدة على وجهها، فأصبح حزيناً كأنّه مثقل بالهموم. لقد رأت رجلاً يتقدّم بهدوء في

الزقاق، على طول الجدار الذي يتّجه نحوه، وقد سحب طاقيّته على جانب رأسه ليخفي بها وجهه. نهضت ماريّا باسكا في الحال ودخلت إلى البيت، فدخل الرجل بعدها، وأغلق الباب وراءه.

لا ينسى باولو أبداً الاضطراب الرهيب الذي اعتراه، وهو يتمشّى عبر حديقة النسوة، وهو يفكّر بذين الشخصين داخل كوخ الزقاق. شعر بكآبة عكرة، باستياء جعله يشعر بالحاجة إلى الانزواء وحده، كأنّه حيوان مريض، كما حمله على التزام الصمت طيلة وقت الغداء، فصمت أكثر ممّا هي عادته، بين مدعوّين يعمّهم السرور، ووجوههم مشرقة طليقة.

عاد بعد الغداء إلى الحديقة، فرأى أنّ المرأة قد عادت إلى الانتظار في مكانها الأوّل، واتّخذت الوضع نفسه الذي كانت عليه. لم تكن الشمس تصل أبداً إلى بابها الصغير على تلك الزاوية الرطبة، وكان الظلّ يحيط بها على الدوام، لذلك فإنّها كانت تحافظ على نعومتها، وعلى ذلك البياض في بشرتها.

عندما رأت طالب المعهد يظهر أمامها من جديد، لم تتحرّك من مكانها، لكنّها عادت وابتسمت له، ثمّ استعادت جدّيتها كما فعلت عندما جاء الرجل البدين، وسألته بصوت مرتفع، محدّثة إيّاه كما تتحدّث إلى فتى صغير:

"إسمع، هل تأتي لتبارك لي بيتي يوم السبت؟ ففي السنة الماضية لم يقبل القسّ، الذي مرّ من هنا، أن يدخل إلى بيتي ليباركه. فعسى أن يكون مصيره إلى الجحيم مع عباءته بكلّ ما فيها".

لم يجب. بل رغب أن يرميها بحجر، لا بل إنّه تناول حجراً من السور ثمّ أعاده ونظّف يده بمنديله. لكنّ عيني المرأة بقيت ماثلة

أمامه، بقيت تلاحقه طيلة ذلك الأسبوع المقدّس، سواء عندما كان يستمع إلى القدّاس، أو يشارك في الاحتفالات الدينيّة، أو وهو يحمل الشمعة ويسير مع زملائه في موكب الأسقف. تملّكته الرغبة في طرد روحها الشرّيرة المسكونة بالشياطين، وشعر في الوقت نفسه أنّ روح الشرّ قد ولجت إلى نفسه. لكنّه، عندما شارك في طقوس غسيل الأقدام[1]، وبينما كان الأسقف ينحني أمام الاثني عشرة متسوّل، الذين ظهروا كأنّهم الحواريّون الاثني عشرة، لانت نفسه، وفكّر بالقسّ الذي رفض تبريك بيت المرأة الساقطة خلال يوم السبت المقدّس من العام المنصرم. بينما كان المسيح بالذات قد غفر لمريم المجدليّة. لو أنّ القسّ بارك بيت المرأة الساقطة، فلربّما كانت تلك المرأة قد تابت الآن. بدأت تلك الأفكار تغزو مخيّلته، وتطغى على كلّ أفكاره الأخرى. أمّا الآن وقد انطوى الأمر في زمن سحيق، فإنّه راجع أفكاره، وأدرك أنّه لم يكن إلا خديعة من خدع الغريزة. لم يكن يعي في ذلك الوقت كلّ مجامع نفسه، لكنّه حتّى لو أدركها، فإنّه كان سيذهب، في كلّ الأحوال، إلى زقاق المرأة الساقطة في يوم السبت المقدّس.

عند منعطف الزقاق رأى أنّ ماريّا باسكا لم تكن جالسة على العتبة، لكنّ الباب الصغير كان مفتوحاً، أي أنّ أيّ زائر لم يكن في الداخل. قلّد بدون تفكير، وفي الحال، ذلك الرجل البدين، وتقدّم بحذر، وهو ينظر ناحية الجدار. شعر بالأسف لأنّه لم يجدها ترصد الطريق، متربّصة في مكانها، ولم تنهض عند مشاهدته بجدّية وحزن. عندما وصل إلى آخر الزقاق رآها وهي تسحب الماء من البئر قرب

(1) طقوس مازالت متّبعة في الكنيسة الكاثوليكية إحياء لعمليّة غسيل المسيح لأقدام الحواريّين خلال العشاء الأخير.

بيتها، فشعر بقلبه يخفق، لأنّها بدت بذلك كأنّها مريم المجدليّة بالذات. ثمّ إنّها التفتت بوجهها، كما فعلت مريم المجدليّة، وهي تسحب الدلو، فاحمرّ وجهها. إنّه لم ير في حياته امرأة أجمل منها. أراد أن يهرب، لكنّه شعر بالخوف منها. دخلت إلى بيتها وهي تحمل إبريق الماء في يدها، وقالت له كلمات لم يسمعها. ثمّ إنّها أغلقت الباب ما إن أصبح هو في الداخل. تسلّقت الدرج الخشبيّ الذي يؤدّي إلى فسحة، تؤدّي بدورها إلى الغرفة العالية، ذات النافذة الصغيرة التي تحمل إشارة صليب لدرء البلاء والإغراءات.

وصلت قبله، فانحنت من على الفسحة، وهي تبتسم له من الأعلى، لتسحبه نحوها بنظراتها. عندما أصبح داخل الغرفة، اقتربت منه وكأنّها تريد أن تقيس نفسها به، ثمّ أسقطت بضربة من يدها القبّعة من على رأسه. ثمّ بدأت هي، وكأنّها هي الرجل وهو المرأة، بدأت بفكّ أزرار عباءته، وهي تلمس أزراره الحمراء بتلذّذ طفوليّ، ذلك كما فعل هو عندما اقتلع حبّة الصمغ من على شجرة اللوز المزهرة.

عاد إليها، ثمّ عاد لمرّات عديدة. لكنّه، بعد أن انتظم في السلك الكهنوتي، أقسم على العفاف. من حينها لم يقترب البتّة من النساء. ذلك كما لو أنّ أحاسيسه تجمّدت ضمن قوقعةٍ مثلّجة، قوقعةِ قَسَمِه الباردة. لذلك فإنّه كان يزهو بطهارته، عندما يسمع قصصاً فاضحة عن بعض القساوسة. وكان لا يذكر مغامرته مع امرأة الزقاق، إلا على أنّها مرض شفي منه تمام الشفاء.

تهيّأ له خلال السنين الأولى التي قضاها في البلدة، أنّه قد عاش حقّاً حياته كلّها، وأنّه قد تعرّف إلى كلّ شيء وكلّ أمر، من البؤس والذلّ، إلى الحبّ والملذّات، ومن الخطايا إلى التكفير. بأنّه انسحب من هذا العالم كأنّه ناسك عجوز، وبأنّه لا ينتظر إلا حلول ملكوت الله.

ثمّ ها هي الحياة الدنيا تظهر له بغتةً من خلال عيني امرأة، فانخدع في بداية الأمر، وظنّ أنّ هذه هي الحياة الأبديّة.

أولاً يعني ملكوت الله على الأرض أن نحبّ الآخرين وأن نكون بدورنا محبوبين؟ وهنا كان صدره ينتفخ من جديد بتلك الذكريات. فلماذا كلّ هذا يا إلهي؟ لماذا كلّ هذا العمى؟ أين أبحث عن النور والضياء؟ كان أحمق جاهلاً، وكان يعرف ذلك. كانت ثقافته عبارة عن قصاصات كتب، لم يفهم روحها بالكامل. بل إنّ التوراة بالذات قد حنّطته برومانسيّتها وواقعيّتها القديمة. لذلك فإنّه لم يكن يثق حتّى بنفسه، ولا بمساعيه للتقصّي داخل نفسه، لأنّه كان يدرك أنّه لا يعرف شيئاً عن نفسه، وأنّه ليس سيّداً على نفسه، وأنّه يخدع نفسه، ويخدعها على الدوام.

لقد حملوه على أن يضلّ الطريق. لأنّه كان رجلاً يعيش بغريزته، مثله مثل آبائه، طحّانين كانوا أم رعاة. وهو الآن يعاني ويتألّم لأنّه لا يستطيع أن يعتمد على غرائزه. ها هو إذن يعود إلى تشخيصه الأوّل لمرضه، إلى أبسط تشخيص وأسلمه. إنّه يتألّم لأنّه رجل، رجل بحاجة إلى امرأة، إلى الملذّات، إلى إنجاب كائنات أخرى. إنّه يتألّم لأنّ هدف الحياة الطبيعيّ هو مواصلة الحياة، وهم يمنعونه من هذا. إنّه هذا المنع، إنّه هو الذي يقوّي الآن الحوافز في رغباته.

ثمّ إنّه بدأ يتذكّر أنّ الملذّات تترك في نفسه القرف والحزن، بعد أن ينتهي من التلذّذ بها. ما الأمر إذن؟ لا، فليس الجسد هو الذي يطلب أن يعيش، بل هي الروح التي تشعر أنّها سجينة في الجسد، وتريد أن تتحرّر من سجنها. الروح نفسها هي التي تطير بسرعة، في لحظات نشوة الحبّ العظمى، لتهرب بعيداً، ثمّ ما تلبث أن تسقط، وبسرعة أيضاً، لتقع في قفصها من جديد. لكنّها في لحظة التحرّر

تلك، تقتنع بلمحة واحدة، تشاهد خلالها مكان السعادة اللامتناهية، اللانهاية. فهو المكان الذي لابدّ أن تطير إليه ذات يوم، بعد انتهاء فترة حبسها، وعندما ينهار جدار الجسد إلى الأبد.

وأخيرا ابتسم، مع أنّه بقي منهك القوى حزيناً: أين قرأ كلّ هذه العبارات؟ من المؤكّد أنّه قرأها في كتاب ما، لأنّه لا يدّعي أنّ أفكاره تبتكر حِكَماً جديدة. لكن ماذا يهمّ؟ فالحقيقة تبقى هي الحقيقة نفسها، متشابهة في قلوب كلّ الناس، كما أنّ قلوب كلّ الناس متشابهة.

كان يظنّ أنّه مختلف عن بقيّة الناس، لأنّه في منفى طوعيّ، لأنّه جدير بأن يكون قريباً من الله. وعلى الأرجح، كان الله يعاقبه لهذا السبب. فأعاده بين الناس، في جماعة ذوي الأحاسيس والآلام.

عليه إذن أن ينهض وأن يسير.

وفي الواقع فقد طرق أحدهم على الباب.

جفل كما لو أنّهم أيقظوه على عجل، وألقى بنفسه على الفور من على السرير، مثل شخص يجب أن يسافر، ويخاف أن يتأخّر عن موعد السفر. لكنّه ما إن نهض حتّى توجّه ليجلس حزيناً، فشعر أنّ كل أطرافه محطّمة، كما لو أنّه تعرّض لضرب مبرح خلال نومه. انحنى على نفسه وأسند ذقنه على صدره، ثمّ حرّك رأسه في إشارة تدلّ إلى "نعم"، نعم. أجل، إنّ أمّه لم تنس أن توقظه في الصباح الباكر، كما طلب منها في اليوم السابق. أجل، إنّ أمّه تسير إلى الأمام على طريقها، وهي لا تذكر شيئاً عن الليلة الماضية، وقد نادته في الصباح، كما لو أنّ كلّ شيء يجري، كما كان يجري في كلّ صباح من الأيّام الخالية.

كانت الأمور متشابهة، أجل. فعاد ونهض وبدأ يرتدي ملابسه. فتصلّب شيئاً فشيئاً وعدّل قامته داخل ثوبه الصارم، الشبيه بثياب المحاربين.

فتح النافذة على مصراعيها، فومض رِمشا عينيه من شدّة الضياء الحيّ في السماء الفضيّة. كانت أشواك العليق ترتجف تحت وطأة الشرر وأغاني الطيور. هدأت الريح، واهتزّت في الهواء الصافي أصوات الحقول.

كانت تلك الأصوات تناديه. لكنّه لم يكن يرى أيّ شيء أمامه في الخارج، على الرغم من أنّه كان يسعى إلى التهرّب ممّا يعتمل في باطنه. كانت روائح غرفته تسبّب له اضطرابات جسديّة. كما كانت الذكريات تخزه في كلّ أنحاء جسمه. كانت أصوات الحقول تناديه، لكنّه لم يتّخذ قراراً بمغادرة غرفته. بل بقي يجوب في أنحائها بحنق وغضب. اقترب من المرآة، ثمّ ما لبث أن ابتعد عنها، كأنّه يفرّ منها، لأنّ صورة المرأة كانت تكمن له فيها بالمرصاد، تماماً كصورته الماثلة فيها. إنّ بوسعه أن يتحطّم في ألف شظيّة، لكنّ كلّ شظيّة ستحفظها كاملة، كما هي.

استعجلته دقّة الناقوس الثانية التي تدعو إلى الصلاة، بسبب ما سمعه فيها من إصرار. بينما كان هو يبحث هنا وهناك عن شيء لم يجده. في النهاية جلس إلى الطاولة وبدأ في الكتابة.

نسخ في البداية أبياتاً من "الباب الضيّق"[1]: "ادخلوا من الباب الضيّق..الخ"، ثمّ محاها وكتب خلف الورقة: "أرجوكِ ألا تنتظريني بعد الآن. فلقد تسربلنا كلانا بشبكة من الخُدع التي يجب علينا أن

---

(1) انجيل لوقا 24/13: "اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق".

نقطّعها لنتمكّن من الخلاص، وإلا لسقطنا في الهاوية. إنّي لـن أجـيء بعد الآن، انسيني. لا تكتبي لي، ولا تحاولي رؤيتي مرّة أخرى".

نزل ونادى على أمّه في ممرّ المدخل، مدّ يده إليها بالرسـالة مـن غير أن ينظـر إليهـا. "احمليهـا في الحـال"، قـال لهـا بـصوت أجشّ. "حاولي أن تسلّميها لها بالذات، وارجعـي في الحـال". عنـدما أحـسّ بالرسالة تنزلق من يده، جرى في الحال وشعر بارتياح مؤقّت.

دقّ الناقوس للمرّة الثالثة وانتشر صوته في البلدة الـساكنة، فـوق وديان مازالت رماديّةً برماديّةِ الفجرِ الفضيّة.

ها هم قرويّون عجائز، لفّ أحدهم حول معصمه شـريطاً تتـدلّى منه عصاة مصنوعة من خشب الورد، وها هنّ النسوة برؤوسـهنّ الـتي تبدو مربّعة وكبيرة، فوق أجسامهنّ الـصغيرة. لقـد جـاء الجميـع مـن الطريق المنحدرة، فبدا كأنّهم يصعدون من أعماق الوادي.

عندما أصبح الجميع داخل مصلّى الكنيسة الصغيرة، وأخذ كبـار الـسنّ مكانهم تحت درابزين المذبح، فاحت روائح بريّة في أنحاء المكان.

كان أنتيوكو[1]، قندلفت[2] الكنيسة الصغيرة المراهق، يساعد في طقوس الصلاة. كان يلوّح بالمبخرة، ويوجّه بخورها نحو كبار الـسنّ، ليقضي على الروائح الكريهة.

انتشرت شيئاً فـشيئاً في المكـان سـحابة مـن البخـور، ففـصلت المذبح عن أنحاء الكنيسة الصغيرة، بينما بدا كلّ من القندلفت الأسمر

---

(1) قـد يلفـظ الاسـم بالعربيـة "أنطوخيـوس"، لكنّـي فـضّلت ايـراده كمـا ورد بالإيطاليّة.

(2) خادم الكنيسة.

بقميصه الأبيض، والقسّ بوجهه الممتقع، وثيابه الكهنوتيّة المصنوعة من الديباج المحمرّ، ظهرا كأنّهما يتحرّكان وسط ضباب لؤلؤيّ.

كان كلاهما يحبّان دخان البخّور ورائحته، ويستخدمانه على الدوام. عندما التفت القسّ نحو الصحن، اضطرّ لأن يغلق عينيه ويقطّب جبينه، وكأنّه لا يستطيع أن يرى بوضوح عبر ذلك الضباب. بدا وكأنّه غير مسرور بسبب قلّة عدد المصلّين، وأنّه ينتظر المزيد منهم. وفي الواقع فقد وصل بعض المتأخّرين، وفي النهاية وصلت الأمّ أيضاً، فامتقع كلّ وجهه، بل شحبت شفتاه أيضاً.

لقد تمّ تسليم الرسالة إذن، لقد بُذلت الأضحية. بلّل عرق الموت صدغيه، وعندما بارك القربان المقدّس انتحب في ذات نفسه وتمتم قائلاً: "إلهي، أبذل لك جسدي، أبذل لك دمي"[1].

تهيّأ له أنّه يرى المرأة، كانت تحمل هي أيضاً ورقة الرسالة في يدها، وكأنّها قربانٌ مقدّس قد بورك، كانت تقرأ، ثمّ سقطت على الأرض مذهولة.

ركع بعد نهاية القدّاس، وهو على أشدّ ما يكون من الوهن والتعب، ثمّ تلا بصوت رتيب الصلاة باللاتينيّة. عندما ردّد المصلّون الصلاة وراءه، شعر كأنّه في حلم، شعر بالرغبة في السقوط أمام المذبح، لينام كما ينام الراعي على صخرة عارية.

عبر ضباب البخّور، وخلف زجاج الكوّة، رأى تمثال العذراء الصغير، وذا المعجزات في نظر عامّة الناس، رآه كأنّه قلادة فيها

---

(1) الأصل في انجيل مرقص: "اشربوا منها كلكم. هذا هو دمي"، "خذوا كلوا. هذا هو جسدي".

حجابٌ مكنون. أمعن النظر فيه، وكأنّه يشاهده للمرّة الأولى بعد مرور وقت طويل، بعد غياب طويل. فأين كان طيلة كلّ ذلك الوقت؟ لم يتذكّر شيئاً كما يجب، كان ذهنه مضطرباً، لكنّه ارتجف فجأة واهتزّ كيانه، فنهض، والتفت، وبدأ يخاطب المصلّين، ليس هذا الأمر بجديد، لكنّه لا يتكرّر كثيراً. تحدّث بالعاميّة، بصوت حادّ، وكأنّه ينهر شيوخ أهل البلدة، الذين كانوا يمدّون رؤوسهم الملتحية فوق رؤوس المستمعين، وراء الدرابزين، ليسمعوا صوته بصورة أفضل، وكذلك النسوة المتربّعات قرفصاء على الأرض، تعلوهنّ أمارات بين الفضول والخوف. أمّا القندلفت فقد تأبّط كتابه وبدأ ينظر إليه بعينيه الداكنتين العريضتين، ثمّ ينظر إلى المصلّين، وهو يهزّ رأسه، وكأنّه يريد أن يهدّدهم تهديد مزاح.

"أجل" قال القسّ، "ها هو عددكم يتناقص، حتّى إنّي أشعر بنوع من الخجل عندما ألتفت وأراكم، لأنّي أشعر عندها كأنّي راعٍ أضاع أغنامه. إنّ الكنيسة لا تمتلئ نوعاً ما إلا في يوم الأحد. حتّى ليقال إنّكم تأتون بسبب وساوسكم، لا بدافع الإيمان، بحكم العادة وليس لحاجةٍ في صدوركم. كأنّكم تغيّرون ثيابكم، كأنّكم تستريحون. لكنّه حان الآن وقت استيقاظكم جميعاً. لا أقول إنّه يتعيّن أن يأتي إلى هنا، كلّ صباح، أمّهاتٌ عائلات ورجالٌ يذهبون عند الفجر إلى أعمالهم. لكنّ الصبايا، وكبار السنّ، والأطفال، وكلّ الذين أشاهدهم عندما أخرج الآن من الكنيسة مستندين على أبواب منازلهم يحيّون الشمس وهي تشرق، على هؤلاء جميعاً أن يأتوا إلى هنا وأن يبدؤوا يومهم مع الله، أن يحيّوا الله في بيته، وأن يستمدّوا القوّة التي ستلزمهم لمتابعة طريقهم. إذا فعلتم ما أقول لكم فسيزول البؤس الذي يقرضكم، وستزول عاداتكم السيّئة، وستبتعد عنكم الفتن. حان الوقت لكي

تستيقظوا باكراً كلّ صباح، أن تغتسلوا وتغيّروا ملابسكم كلّ يوم، وليس في يوم الأحد فقط. إنّي أنتظركم إذن جميعكم، وسنصلّي سويّة بدءاً من الغد. سنصلّي كي لا يتخلّى الله عنّا ولا عن بلدتنا الصغيرة كما أنّه لا يتخلّى عن أصغر الأعشاش. سنصلّي من أجل أولئك المرضى الذين لا يستطيعون أن يأتوا إلينا، سنصلّي من أجل شفائهم وكي يتمكّنوا من النهوض، والسير على أقدامهم".

استدار بغتة، فقام القندلفت بتقليده. ساد الكنيسة الصغيرة للحظات صمتٌ كثيف، فأصبح من اليسير سماع قرع كسّارة الحجارة من خلف المرتفع. ثمّ نهضت امرأة واقتربت من أمّ القسّ، ووضعت يدها على ذراعها، وانحنت عليها لتقول لها همساً:

"يجب أن يأتي ابنك حالاً ليسمع اعترافات الملك نيكوديمو، فلقد أصيب بمرض شديد".

رفعت الأمّ عينيها، وهي تخرج من خضمّ آلامها. كانت تذكر أنّ الملك نيكوديمو صيّاد قديم، متقلّب الأطوار، يعيش في كوخ على الهضبة، وقد طلب أن يأتي ابنها باولو إليه في الهضبة ليسمع اعترافاته.

"لا"، تمتمت المرأة. " لأنّ أقرباءه نزلوا به إلى البلدة".

ذهبت الأمّ وقتها لتُعلم ابنها باولو، وكان قد دخل إلى غرفته الصغيرة وأنهى لتوّه تغيير ملابسه بمساعدة أنتيوكو.

"لكن يجب أن تأتي إلى البيت أوّلاً، وتتناول قهوتك".

تجنّب النظر في وجهها، ولم يجبها، بل حاول الاهتمام بأموره، وتعجيل عمله، ليتمكّن من الإسراع نحو المريض العجوز.

كانت الأمّ والابن يفكّران في الأمر نفسه: في الرسالة التي تمّ تسليمها إلى آنيبزه، لكنّ أحداً منهما لم ينبس ببنت شفة. بعد أن ذهب مسرعاً، بقيت هي واقفة بثبات، كأنّها تمثال من خشب. وما لبثت أن قالت للقندلفت، المشغول بإعادة الثياب الكهنوتيّة إلى مكانها في الخزانة السوداء: "كان من الأفضل ألا أخبره بشيء قبل أن يتناول قهوته في البيت".

لكنّ أنتيوكو أطلّ بوجهه من نافذة الخزانة وقال بكلّ وقار: "على الكاهن أن يتعوّد على كلّ الأمور".

ثمّ أضاف وكأنّه يكلّم نفسه، بينما كان يستأنف عمله داخل الخزانة:

"ربّما كان غاضباً منّي، فقد قال إنّي كنت شارد الذهن. وهذا ليس صحيحاً. أؤكّد لكِ أنّي لم أكن كذلك. بل كنت أراقب كبار السنّ، فجاءتني رغبة بالضحك، لأنّهم لم يفقهوا العظة بكلّ تأكيد. لقد فغروا أفواههم، لكنّهم لم يكونوا يفقهون شيئاً. وإنّي أراهن أنّ العجوز ماركو بانيتزا ظنّ أنّ عليه بالفعل أن يغسل وجهه كلّ يوم، هو الذي لا يغتسل إلا في عيدي الفصح والميلاد. وسترين، سترين أنّهم من الآن فصاعداً سيأتون كلّ يوم إلى الكنيسة، لمجرّد أنّه قال لهم إنّ هذا سيزيل البؤس عنهم".

بقيت هي واقفة بثبات ويدها تحت مئزرها.

"بؤسَ النفس والروح" قالت، وذلك لتبرهن على أنّها فهمت، هي على أقلّ تقدير. ومع هذا فقد نظر أنتيوكو إليها بشيء من السخرية، وبرغبة عميقة في الضحك، كما كان ينظر قبل قليل إلى كبار السنّ. فهو على يقين أنّ أحداً لن يتمكّن من فهم هذه الأمور،

كما يفهمها هو، هو الذي يحفظ الأناجيل الأربعة عن ظهر قلب، والذي يريد أن يصبح قسّاً، لكنّ هذا لم يمنعه على كلّ، من أن يكون خبيثاً وفضولياً مثل غيره من الصبية.

بعد أن غادرت الأمّ، ووضع هو كلّ شيء في مكانه، أغلق القندلفت باب الغرفة الصغيرة واجتاز حقل مصلّى الكنيسة الصغير، الذي اجتاحته نبات إكليل الجبل، وبقي مع هذا منعزلاً مثل أطراف المقبرة. لكنّه عوضاً عن أن يعود إلى بيته، وإلى أمّه التي كانت تدير مطعماً هناك على زاوية الساحة، جرى نحو منزل الكنيسة ليستطلع أخبار الملك نيكوديمو، ولأسباب أخرى أيضاً.

"لقد نهرني ابنُكِ لقلّة انتباهي"، كرّر وهو قلق مضطرب، بينما كانت أمّ القسّ مشغولة بتحضير وجبة الفطور لابنها باولو. "ربّما لن يريدني بعد الآن إلى جنبه في غرفة القسّ، ربّما رغب في تعيين إيلاريو بانيتسا، لكنّ إيلاريو لا يعرف حتّى القراءة، بينما أنا تعلّمت، وإنّي أُحسن القراءة الآن باللاتينيّة. كما أنّ إيلاريو وسخ، ما هو رأيك؟ هل سيطردني؟".

"يريد منك أن تنتبه، ولا شيء آخر، يجب ألا يضحك المرء في الكنيسة"، أجابته جادّةً وبقسوة. "كان غاضباً جداً، ربّما لأنّه لم ينم هذه الليلة بسبب الرياح. هل سمعت كم كانت الرياح شديدة؟".

لم تجبه المرأة. بل ذهبت نحو غريفة الطعام، ووضعت على المائدة كميّات كثيرة من الخبز ومن البسكويت، تكفي الحواريّين الاثني عشر جميعهم. علماً أنّ ابنها باولو قد لا يأكل من هذا شيئاً، لكنّ تحرّكها، وتحضيرها الطعام له، كما لو أنّه سيعود فرحاً مسروراً وجائعاً، كالراعي يعود من الجبل، كان كلّ هذا يهدّئ بعض آلامها، بل وربّما ضميرها أيضاً.

غير أنّ ضميرها كان يتعذّب من حين لآخر فيزيد من أحزانها: كما زادت ملاحظات الفتى من قلقها واضطرابها: "إنّه على الأرجح لم ينم، ولهذا فهو قلق غاضب".

بقيت في جيئة وذهاب، خطاها الثقيلة كانت ترنّ عبر الغرف الصغيرة الساكنة. شعرت بالغريزة أنّ كلّ شيء قد انتهى، لكن في ظاهر الأمر فقط، لأنّ كلّ شيء كان قد ابتدأ في تلك الساعة. لقد أدركتْ كلّ الإدراك مغزى كلماته من على المذبح: أنّه يجب الاستيقاظ باكراً، الاغتسال والسير. السير، السير. وهكذا فقد مشت جيئة وذهاباً، صعوداً وهبوطاً، هبوطاً وصعوداً، لتوهم نفسها أنّها تغذّ السير بالفعل. لقد أصبحت الآن على قناعة بأنّ كلّ شيء قد انتهى، وبالرغم من هذا، فقد ثار غضبها واضطربت وهي تعيد ترتيب غرفته، فقد شمت روائح عطره ورأت المرآة.

رأت صورة ابنها باولو، بوجه شاحب متصلّب كوجوه الأموات، رأتها من خلال المرآة اللعينة، بل ومعلّقة على الجدار فوق ثوبه، رأتها مسجّاة لا تتنفّس، على السرير.

كانت تشعر بثقلٍ يجثم على فؤادها، كما لو أنّ حشىً من أحشائها شُلّ في باطنها، وأصبح يمنعها من أن تتنفّس بشكل سليم. وبينما كانت تضع غطاء جديداً لوسادة ابنها باولو، بعد أن نزعت عنها الغطاء المبلّل بعرق أحزانه، تساءلت في سرّها وللمرّة الأولى في حياتها: "لكن لماذا لا يمكن للقساوسة أن يتزوّجوا؟".

فكّرت أيضاً أنّ آنيزه فتاة غنيّة، تملك بيتاً كبيراً وحقلاً ومزارع.

وهنا ظهر لها أنّها تأثم إثماً عظيماً، عندما تفكّر بمثل هذه الأفكار. فذهبت لتضع الغطاء، ثمّ عادت إلى الوراء، مرّت عبر

غرفتها. السير، السير، سارت منذ انبلاج الفجر وما زالت في أوّل الطريق. على كلٍّ فإنّنا نذهب، ونذهب، ونعود دائماً إلى النقطة نفسها. عادت إلى الأسفل وجلست أمام المدفأة، إلى جانب أنتيوكو، فهذا على الأقلّ لا يتحرّك، فهو قد صمّم أن ينتظر، ولو طيلة النهار، سينتظر حتّى يعود رئيسه، ليصالحه. بقي جامداً وقد لفّ ساقه على الساق الأخرى، وشبك يديه حول ركبتيه. ثمّ قال بلهجة فيها شيء من العتاب الرقيق: "كان من الأفضل أن تأتيه ببعض القهوة إلى مصلّى الكنيسة، كما تفعلين عندما كان يتلكّأ وهو يستمع إلى اعترافات النساء. هذا سيجعله يشعر بالجوع أيضاً!".

"وكيف كان لي أن أعرف أنّهم سيستدعونه على عجل؟ يبدو أن العجوز يحتضر".

"يمكن ألا يكون هذا صحيحاً. فأحفاده يريدون أن يموت لأنّه يملك ثروة، إنّي أعرف ذلك العجوز. رأيته ذات مرّة عندما ذهبت مع أبي إلى الجبل. كان جالساً تحت أشعّة الشمس، بين الحجارة، إلى جانب كلبٍ وصقرٍ مدرّب، كان هناك أيضاً كثير من الحيوانات الميّتة قربه، إنّ الله لا يأمر بهذا.

"وبماذا يأمر إذن؟".

"الله يأمر بالعيش بين الناس، بزراعة الأرض، بعدم تخزين الأموال، وبإعطائها للفقراء".

تحدّث القندلفت الصغير كأنّه رجل صغير، فرقّ قلبُ أمِّ القسّ لحديثه.

فإذا كان أنتيوكو يتكلّم بمثل هذه الطلاقة، وبمثل هذا الكلام المنمّق، فهذا بعد كلّ شيء، بسبب دروس ابنها باولو. لأنّ ابنها باولو

كان يعلّم الجميع الصلاحَ والخيرَ والحكمة والتعقّل، بل وكان قادراً عندما يريد ذلك، أن يقنع حتّى كبار السنّ، رغم أنّ هؤلاء شكّلوا قناعاتهم وثبّتوا آراءهم، وكذلك الأطفال الأبرياء السذّج.

تنهّدت، وهي تنحني لتقرّب آنية القهوة من الجمر الملتهب.

"إنّك تتحدّث، يا أنتيوكو العزيز، كأنّك قدّيس صغير. فهل ستبقى على هذه الآراء عندما تكبر، وهل ستعطي نقودك للفقراء".

"أجل، إنّي سأعطي الفقراء كلّ شيء. سأحصل على دراهم كثيرة، لأنّ أمّي تربح الكثير من مطعمها، وأبي يعمل في حراسة الغابة، ويربح هو الآخر. سأعطي الفقراء كلّ ما أملك. هذا ما يريده الله، وهو الذي يرعانا ويمدّنا. وقد جاء في التوراة: " تَأَمَّلُوا الْغِرْبَانَ: أَنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ، وَلَيْسَ لَهَا مَخْدَعٌ وَلاَ مَخْزَنٌ، وَاللهُ يُقِيتُهَا. كَمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلُ مِنَ الطُّيُورِ!.... تَأَمَّلُوا الزَّنَابِقَ كَيْفَ تَنْمُو: لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ، ولكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. "[1].

"أجل يا أنتيوكو، لكن عندما يكون المرء وحيداً. وعندما يجب أن يعيل أولاده؟".

"هذا لا يغيّر شيئاً من الأمر. ثمّ إنّي لن أنجب أولاداً. يجب ألا يكون للقساوسة أولاد".

التفتت لتتأمّله، كانت تراه من جانب وجهه، مقابل باب البهو المفتوح. كان طرف وجهه قاتماً، صافياً، ثابتاً، كما لو أنّه قُدّ من برونز. كانت رموشه الطويلة تغطّي عينيه بمؤقتيهما الواسعتين. لم تعرف لماذا شعرت برغبة بالبكاء.

---

(1) النص كما ورد في انجيل لوقا 12/24-27.

"هل أنت واثق من أنّك ستكون قساً؟".

"إذا شاء الله، أجل".

"لا يمكن للقساوسة أن يتزوّجوا. وإذا ما أردت أنت أن تتزوّج؟".

"أنا لا أريد أن أتزوّج، لأن الله لا يريد ذلك".

"هل هو الله؟ البابا هو الذي لا يريد ذلك". أجابت الأمّ بشيء من النكد.

"البابا هو ممثّل الله على الأرض".

"لكنّ القساوسة كانوا في الماضي يتزوّجون وينجبون، وكذلك يفعل القساوسة البروتستانت اليوم".

"وماذا يعني هذا؟"، أجاب الفتى وقد حمي وطيسه. "نحن يجب ألا نتزوّج". "لكنّ القساوسة القدامى..." أصرّت المرأة.

غير أنّ القندلفت كان شخصاً مثقّفاً. "القساوسة القدامى، حسناً. لكنّهم هم أنفسهم دعوا لاجتماع وقرّروا العكس. وكان غير المتزوّجين منهم، أي الشباب، كانوا أشدّ إصراراً على الرفض. وهذا هو الصحيح".

"الشباب!" ردّدت الأمّ وكأنّها تكلّم نفسها. "لأنّهم لا يعرفون. يمكن لهم بعدها أن يندموا، يمكن لهم أيضاً أن ينحرفوا"، ثمّ أضافت همساً: "يمكن لهم أن يناقشوا كما فعل القسّ القديم".

وهنا اعترتها رعشة. أجالت النظر حولها بسرعة، كما لو أنّها تريد أن تتأكّد من عدم وجود الشبح، ثمّ إنّها ندمت في الحال لأنّها استحضرته. أجل، فهي لم ترغب حتّى في ذكر اسمه، خاصّة فيما يتعلّق بذلك الشيء. ألم يكن كلّ شيء قد انتهى؟.

من ناحية أخرى، كانت تعابير الازدراء تظهر على وجه أنتيوكو.

"ذلك لم يكن قساً. كان أخاً للشيطان، ظهر على وجه الأرض. عافانا الله. يجب علينا ألا نذكره البتّة".

وهنا قام برسم إشارة الصليب. ثمّ قال وقد صفا وجهه من جديد:

"وكيف يندمون! هل هو، أي ابنك، هل فكّر ربّما بالندم؟".

شعرت بالألم، وهي تسمعه يتحدّث بهذا الكلام. كان بودّها أن تحدّثه عن بعض آلامها، أن تجعله يحترس من المستقبل، بينما كانت تشعر وفي الوقت نفسه ببعض السرور من كلماته. بدا أنّ ضمير ذلك الشخص البريء يحدّث ضميرها ليدعمه وليشجّعه.

"هل إنّه، أي ابني باولو، يقول إنّ هذا هو الصح؟". سألته همساً.

"إذا لم يقل ذلك هو، فمن الذي يمكن له أن يقوله؟ أجل، إنّه يقول ذلك. ألا يحدّثك بهذا؟ تصوّري! ما أجمل أن نرى قساً مع زوجته، يحمل ابنه على ذراعه! القسّ الذي عليه أن يذهب لإقامة القدّاس، عليه أن يحمل ابنه على ذراعه لأنّه يبكي! هذا أمر مضحك. تصوّري ابنك وهو يحمل ولداً على ذراعه، بينما يشدّ له الولد الثاني ثوبه".

ابتسمت الأمّ، ومع هذا، فقد اضطرب قلبها لرؤيةٍ عبَرت مخيّلتها بصورة خاطفة، فشاهدت أطفالاً جميلين منتشرين في أنحاء البيت. كان أنتيوكو يضحك، وتبرق عيناه وأسنانه وسط وجهه الأسمر، لكنّ شيئاً من القسوة كان يبرقع ضحكته.

"على كلٍّ، لا بدّ أنّ منظر زوجة القسّ منظر مُضحك! أمّا إذا سارت إلى جانبه في الطريق، فسيظهران كأنّهما امرأتان تتجوّلان. كما

أنّ زوجة القسّ ستكون مضطرّة لأن تعترف عند زوجها، لأنّه لا يوجد في البلدة قسّ آخر غيره".

"وماذا عن الأمّ إذن؟ فإلى من أذهب عادة أنا، لكي أعترف؟".

"الأمّ أمرٌ آخر. ثمّ من هي التي يمكن أن تُقدِّم زوجةً لابنك؟ هل هي حفيدة الملك نيكوديمو مثلاً؟".

عاد وضحك، لأنّ حفيدة الملك نيكوديمو كانت أشقى فتاة في كلّ البلد، فهي عرجاء وبلهاء. ما لبث أنتيوكو أن استعاد رصانته، عندما وجدت الأمّ نفسها، مدفوعة بإرادةٍ لم تكن إرادتها، على أن تقول بصوت منخفض:

"أمّا من هذه الناحية، فهناك واحدة جاهزة: إنّها آنييزه"، فتمتم أنتيوكو وقال بشيء من الغيرة:

"إنّها قبيحة، لا تعجبني، بل إنّها لا تعجبه هو بالذات".

بدأت المرأة عندها تكيل المديح لآنييزه، لكنّها واصلت حديثها بصوت منخفض، كما لو أنّها تخاف أن يسمعها أحدٌ غير الفتى. أمّا أنتيوكو فقد بقي يهزّ رأسه بالرفض، ثمّ الرفض. كانت يداه معقودتين حول ركبتيه، بينما تدلّت شفته السفلى لتعبّر، وهي تلمع مثل حبّة الكرز، عن الازدراء والسخرية.

"لا، وألف لا، إنّها لا تعجبني، هل تريدين أن تسمعي أكثر من ذلك؟ حسناً: إنّها قبيحة، متكبّرة، عجوز. بل...". وهنا سُمع وقعُ خطوات في الممرّ، فصمت الاثنان بالانتظار.

جلس ووضع قبّعته على كرسيٍّ مجاور، أمام المائدة المعدّة للطعام. وبينما كانت الأمّ تصبّ له القهوة، سألها بصوت هادئ: "هل

سلّمت الرسالة؟". أجابته بنعم، وهي تشير باتّجاه المطبخ، خشية أن يسمعهما الفتى. "من يوجد هناك؟"، "أنتيوكو".

"أنتيوكو"، نادى عليه، فمثل الفتى أمامه بقفزة واحدة، يحمل قبّعته في يده، مستقيم القامة في وضع الاستعداد كجنديّ صغير.

"يجب أن تذهب يا أنتيوكو إلى مصلّى الكنيسة، علينا أن نقوم فيما بعد بالمسحة الأخيرة[1] للعجوز".

لم يتمكّن الفتى من الإجابة من شدّة فرحه. هذا يعني أنّ غضب القسّ قد تلاشى، وأنّه لا يفكّر بإقصائه عن عمله، ولا استبداله بشخص آخر.

"انتظر، هل تناولت طعامك؟".

"لم يقبل أن يتناول شيئاً"، علّقت الأمّ.

"اجلس هناك"، أمره باولو. "قدّمي له بعض الطعام يا أمّي، وأنت عليك أن تأكل".

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يجلس فيها أنتيوكو إلى مائدة القسّ، لهذا فقد أطاع دونما استحياء، لكنّ قلبه كان يدقّ بعض الشيء، فلقد لاحظ أنّ شيئاً ما قد تغيّر تجاهه، وأنّ القسّ يكلّمه بطريقة تختلف عمّا كان يفعل في السابق، ولم يتمكّن من أن يجزم لماذا أو كيف، لكنّه كان يكلّمه بطريقة مختلفة عن العادة.

أمّا هو فقد كان ينظر إلى وجهه، وكأنّه يراه للمرّة الأولى، ينظر إليه مسروراً لكن بشيء من الرهبة، سرورٌ ورهبةٌ وخليطٌ من المشاعر

---

(1) أي دهنه بالزيت المقدّس.

الجديدة، من الامتنان، من الأمل، من الأنفة والكبرياء، ملأت هذه المشاعر قلبه كأنّها طيورٌ في عشّها، تغرّد دافئة، على أهبة الطيران.

"ثمّ عليك أن تأتي في الساعة الثانية إلى الدرس، لقد حان الوقت لكي تبدأ تعلّم اللاتينيّة بصورة جدّيّة. سأطلب لك كتاب قواعد جديد، لأنّ كتابي قديم من القرن الماضي".

كان أنتيوكو قد توقّف عن تناول الطعام، احمرّ وجهه وهو يقدّم خدماته بحماسة من غير أن يعرف سبباً لهذا، وكان القسّ ينظر إليه وهو يبتسم. لكنّه أدار وجهه على حين غرّة نحو النافذة الصغيرة التي ترتجف على خلفيّتها المذهّبة ظلال شجيرات المرتفع، وبدا أنّه يفكّر في أمور أخرى. هنا شعر أنتيوكو أنّه رجع وحيداً من جديد، ومهجوراً من جديد. بدا حزيناً وهو يجمع الفتات من على المائدة. ثمّ طوى منديله بكلّ عناية وأعاد الكؤوس إلى المطبخ، وحاول أن يغسلها، وكان سيجيد غسيلها لأنّه اعتاد فعل ذلك في الحانة، لكنّ أمّ القسّ لم تسمح له بذلك.

"هيّا، هيّا اذهب إلى مصلّى الكنيسة، وقم بتحضيراتك"، قالت له بصوت منخفض وهي تدفعه دفعاً. خرج عندها، لكنّه قبل أن يتوجّه إلى مصلّى الكنيسة، ذهب إلى أمّه ليخبرها بأن تنظّف البيت كما يجب، لأنّ القسّ يريد أن يزورها.

في هذه الأثناء عادت أمّ القسّ إلى غريفة الطعام، حيث بقي ابنها باولو جالساً هناك إلى المائدة، وهو يقرأ الصحيفة.

عندما يكون في البيت ينسحب عادة إلى غرفته، لكنّه شعر في ذلك الصباح بالخوف من الذهاب إليها. كان يقرأ الصحيفة، لكنّه كان يفكّر في أمور أخرى، كان يفكّر بالصيّاد العجوز الذي يحتضر،

والذي اعترف له بأنّه كان يهرب من صحبة الناس لأنّهم "هم الشرّ بعينه". وكان الناس يلقّبونه "الملك" على سبيل السخرية، كما كان يفعل اليهود مع المسيح. لكنّ اعتراف العجوز لم يكن هو الذي يشغل بال باولو، لأنّه كان يفكّر بأنتيوكو، وبأمّ أنتيوكو وبأبيه، إذ كان يريد أن يسألهما فيما إذا كانا يعرفان حقّ المعرفة، ما الذي يعنيه ترك الفتى لأوهامه الخرقاء، وقراره الأرعن في أن يصبح قسّاً. على كلٍّ شعر بأنّه ليس هذا ما يشغله حقّاً. فما يشغله حقّاً كان الهروب من أفكاره الحقيقيّة. لذلك، فإنّه عندما رأى أمّه تعود إلى الغرفة، حنى راسه، وقد عرف أنّها هي الوحيدة القادرة على معرفة أفكاره الحقيقيّة.

حنى رأسه لكنّه قال لنفسه: لا، لا، لا. لا، لن يستجوبها بعد الآن، فالرسالة قد سلّمت، فماذا يريد أن يعرف أكثر من ذلك؟.

إنّ حجر القبر مازال في مكانه، آه، كم هو ثقيلٌ فوق رقبته! لكنّه كم كان يشعر أنّه على قيد الحياة، رغم أنّه مدفون تحت ذلك الحجر!

بدأت الأمّ ترفع الأطباق عن المائدة، وتعيد كلّ شيء إلى الخزانة التي كانت تستعملها خواناً لأدوات الطعام.

كان تغريد العصافير على المرتفع يتسرّب عبر الصمت المطبق، ويصل على وقع ضربات كسّارة الحجارة. بدا له أنّ هذه هي آخر نقطة في العالم كلّه، وأنّ آخر غرفةٍ مسكونة ببشرٍ أحياء، هي تلك الغريفة البيضاء، ذات الأثاث المائل لونه إلى السواد، والأرضيّة المصنوعة بقطعٍ من آجرٍّ قديم، مزيّن بضوءٍ أخضر مذهّب، يتسرّب من النافذة العالية، على شكل انعكاسِ رعشات مائيّةٍ، تجعل المكان كأنّه سجنٌ مركونٌ في صدر قلعةٍ معزولة.

شرب قهوته كما كان يشربها في بقيّة الأيّام، وأكل قطع البسكويت كما كان يأكلها في بقيّة الأيّام. وها هو الآن يقرأ أخبار العالم البعيد، أجل إنّه يفعل الذي كان يفعله في بقيّة الأيّام. لكن الأمّ كانت تفضّل أن يصعد إلى غرفته وأن يبقى فيها، وأن يستجوبها من جديد، ليعرف كيف هي سلّمت الرسالة، ولمن سلّمتها. ذهب نحو باب المطبخ والفنجان في يده، ثمّ عاد قرب الطاولة والفنجان في يده.

"باولو، لقد سلّمت الرسالة لها بالذات. كانت قد نهضت، بل كانت قد خرجت إلى حديقتها أيضاً". "حسناً"، أجاب من غير أن يرفع نظره عن الصحيفة.

لكنّها لم تستطع أن تذهب، لم تستطع إلا أن تتكلّم. كان هذا أقوى من إرادتها بالذات، بل أقوى من إرادته هو الآخر، كان أمراً مفروضاً. بلع ريقه المالح الذي كان يملأ فمه، ونظر في داخل الفنجان، في منظرٍ يابانيّ سوّده لون القهوة.

"كانت قد خرجت إلى الحديقة، لأنّها تنهض مبكّرة من فراشها. ذهبتُ مباشرة إليها وأعطيتها الرسالة. لم يرنا أحد. تناولت الرسالة ونظرت إليها. ثمّ نظرت إليّ ولم تفتحها. قلت: "لا حاجة للجواب". لكنّها قالت: "انتظري". وفتحت الرسالة، كما لو أنّها تريد أن تبرهن لي أنّه لا يوجد أسرار. لكنّها ما لبثت أن صارت بيضاء كالورقة، ثمّ قالت لي: "في أمان الله".

"كفى، كفى"، أمرها من غير أن يرفع عينيه، لكنّ الأمّ رأت ضربة رمشيه، وشاهدت وجهه ينقلب أبيض، كما انقلب أبيض وجه آنييزه. ظنّت لبرهة أنّه أغمي عليه. لكنّها ما لبثت أن رأت وجهه يحمرّ بدم قلبه وهو يصعد إلى وجهه، فاستعادت هي الأخرى وعيها. كانت

دقائق صعبة، لكنّه كان لابدّ من مجابهتها والتغلّب عليها. فتحت فمها لتقول شيئاً آخر، أو لتتمتم على أقلّ تقدير: "هل ترى ما الذي صنعته؟ لقد أسأت لنفسك ولها". كان قد رفع وجهه، وبدأ يهزّه إلى الوراء ليطرد منه دم العواطف الفاسد، ثمّ حملق فيها بنظرات ملؤها التهديد وقال: "كفى الآن. هل فهمت أنّه قد كفى؟ لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا الموضوع، على الإطلاق، وإلا فإنّي سأقوم بما هددّتني أنتِ بفعله البارحة، أي أنّي سأرحل من هنا.

وبالفعل فقد نهض بفظاظة، لكنّه لم يتوجّه إلى غرفته، بل خرج من جديد. ذهبت الأمّ إلى المطبخ، والفنجان يرتجف بين يديها، ركنته ثمّ استندت إلى طرف الفرن، وهي مرتبكة مضطربة. تهيّأ لها أنّه رحل إلى غير رجعة، وأنّه حتّى لو عاد، فإنّه لن يكون هو ابنها باولو نفسه، بل مجرّد شخص بائس شقيّ وقع في شباك أهوائه، مجرّد شخص ينظر بعينين مهدّدتين، كأنّه لصّ متربّص يهدّد كلّ من يمرّ أمامه.

وفي الواقع فقد كان يمشي مشية الهارب من بيته، كان لا يريد العودة إلى غرفته، لأنّه شعر كأنّ آنييزه قد تسلّلت إليها، وأنّها ستنتظره بوجهها الشاحب الأبيض، وستلوّح له برسالته الي تحملها في يدها. لقد هرب من البيت ليهرب من نفسه. لكنّ عواطفه كانت تطير به بعيداً وتعصف به، بأسوأ من عصف الرياح في الليلة الماضية.

بهذا اجتاز الحقل دون أن يعرف كيف اجتازه، بل بدا له أنّه قد ضُرب عرض الحائط، ليجد نفسه على جدار بيتها وبستانها. لكنّ تلك الضربة أعادته إلى الوراء، فوجد نفسه هذه المرّة في الساحة، وكان يطلّ عليها الأولاد والمتسوّلون، بينما يجلس على شرفتها كبار السنّ من الرجال.

تحدّث مع هؤلاء وأولئك، لكنّه لم يسمع شيئاً من أصواتهم. ثمّ نزل على طريق البلدة، حتّى نهاية درب الوادي، لكنّه لم ير كذلك شيئاً من البلدة، أو من الدرب، أو من الوادي. شعر أنّ الكون كلّه قد انقلب وصُبّ في باطنه، بكلّ ما فيه من فوضى وخراب وحطام وحجارة متبعثرة. انطوى على نفسه ليطلّ عليها جميعها، كما أطلّ الأولاد على حوافّ الوادي من فوق الصخور.

عاد بعدها نحو الكنيسة. كانت طرق البلدة الصغيرة مقفرة. وكانت تبرز من فوق أسوار الأروقة شجيرات الدراق بثمارها الناضجة، بينما كانت قطع صغيرة هادئة من الغيوم البيضاء، تعبر سماء أيلول المضيئة.

وكان يصل من بعض البيوت بكاء طفل رضيع، ومن بعضها الآخر ضجيج آلات النسيج.

كان الحارس الحقليّ يجوب الشوارع، مع كلبه الضخم المكمّم. إنّه واحد من الحرس البلديّ المكلّفين أيضاً بالخدمات المدنيّة، أي أنّه السلطة الوحيدة في المكان. كان يرتدي ثياباً بين زيّ الصيّادين وزيّ الموظّفين، سترة من مخمل باهت اللون، وسروالاً أزرق عليه أشرطة حمراء. أمّا الكلب، وهو بين فصيلتي الذئب والأسد، فكان لونه خليطاً بين الأسود والأحمر، وكانت عيناه محقونتين بالدم. كان جميع أهل البلدة، والفلاحون في الوادي، والرعاة على الجبال، والفتية واللصوص، كانوا جميعهم يعرفون هذا الكلب ويهابونه. وكان هذا الحارس يسوقه أمامه ليل نهار، خاصّة أنّه يخشى من أن يسمّمونه له. عندما شاهد القسّ، غمغم الكلبُ ثمّ ما لبث أن هدأ وخفض رأسه، بإشارة من سيّده.

توقّف الحارس، وقدّم التحيّة العسكريّة للقسّ، ثمّ قال بلهجة رسميّة رزينة: "ذهبتُ باكراً هذا الصباح لزيارة المريض. درجة حرارته أربعون، والنبض مئة واثنان. أعتقد بحسب رأيي المتواضع أنّه يشكو من التهاب الكلى. طلبتْ منّي حفيدته أن أعطيه عقار الكينين". كان الحارس يحتفظ بالعديد من الأدوية، بشكل يستطيع فيه أن يعود المرضى، ويوهم نفسه بأنّه بديلٌ عن الطبيب، هذا فضلاً عن تأدية واجبه المهنيّ أيضاً. أمّا الطبيب فكان لا يزور البلدة إلا مرّتين في الأسبوع. "لكنّي قلت لها: "رويدك يا امرأة، فهو بحاجة حسب رأيي المتواضع إلى شرابٍ مُطهّر، وليس إلى الكينين. كانت المرأة تبكي، لكن بلا دموع، على كلٍّ، فليحرقني ربّي بصاعقة من عنده، إذا كنت متهوّراً في حكمي". لذلك فقد طلبتْ منّي أن أسرع في طلب الطبيب. فقلت لها: "سيأتي الطبيب غداً، الأحد، أمّا إذا كنت على عجلة من أمرك، فأرسلي شخصاً من طرفك في طلبه. إذ يمكن لهذا المريض أن يدفع أجرة الطبيب وهو يموت، بعد أن قضى كلّ حياته دون إنفاق". "هل قلتُ الحقّ؟".

انتظر جاداً تصديق القسّ على كلامه. لكنّ القسّ كان ينظر إلى الكلب الذي وقف على أهبة الاستعداد، لكن برقّة ولطف، نزولاً عند رغبة سيّده، وكان يفكّر:

"حبّذا لو كان باستطاعتنا أن نقود مشاعرنا هكذا، بالرسن".

"آه، أجل"، أجاب وهو مشتّت الذهن، "على كلٍّ يمكن لنا أن ننتظر زيارة الطبيب حتّى صباح الغد، غير أنّ حال المريض خطيرة".

"ومع هذا، إذا كانت حاله خطيرة – عاد الحارس وأصرّ بحزم، وبلهجة لا تخلو من بعض الغضب، بسبب لا مبالاة القسّ – فليرسلوا

شخصاً في طلب الطبيب. يمكن للمريض أن يدفع، إنّه ليس فقيراً، لكنّ حفيدته لم ترض بنصائحي، لم تقبل بإعطائه الشراب، مع أنّي وصفته، بل وحضّرته له بنفسي".

"كان علينا أن نحضّر له قبلها القربان المقدّس".

"أنت أستاذي وتعرف أنّه يمكن تقديم القربان المقدّس للمريض حتّى لو يكن على الريق".

"حسناً"، قال القسّ وقد فقد صبره، "لم يقبل العجوز بالشراب، وكزّ على أسنانه، التي حافظ عليها سليمة قويّة، بل كان يلكم بقبضته مثل الأصحّاء".

"إذن فعلى حفيدته، بحسب رأيي المتواضع، ألا تسمح لنفسها بإعطائي الأوامر، لي، أنا الحارس المدنيّ والحقليّ، فأنا لستُ خادماً عندها لتأمرني بأن أطلب الطبيب على عجل". ليست حالُ المريض حالَ جريح، أو أيّةَ حال أخرى لها علاقة بالطبّ الشرعيّ. إنّ على الحارس مهامّ أخرى مختلفة، عليه أن يتدبّر شؤونها. عليّ الذهاب الآن مثلاً إلى مخاضة النهر، فلقد تلقّيتُ شكوى تفيد أنّ بعض المحسنين وضع المتفجّرات في الماء ليقتل أسماك التروات. أحيّيك".

قدّم التحيّة العسكريّة من جديد. على وقع حركته، شارك الكلبُ سيّدَه الغضبَ المكتوم، فتحرّك هو أيضاً وهزّ ذيله بوحشيّة. لم يغمغم، لكنّه التفت نحو القسّ، ونظر إليه بعينين غاضبتين غضبَ القتلة المجرمين.

كان أنتيوكو يطلّ من الأعلى، من فوق شرفة الساحة، واقفاً تحت شجرة الدردار التي ترفرف بظلالها الوارفة. وقف ينتظر، بعد أن حضّر للعجوز كلّ ما يلزم للمسحة الأخيرة، لكنّه ما إن رأى القسّ حتّى جرى وسبقه إلى غرفة القندلفتيّة، والقميص في يده.

أصبح اثناهما جاهزين خلال وقت قصير، فالقسّ يحمل القميص والشال وإناء الفضّة وفيه الزيت المقدّس، وأنتيوكو مغطىً من رأسه إلى أخمص قدميه بعباءة حمراء، وهو يحمل مظلّة مفتوحة، مقصّبة، وحوافّها مذهّبة، يعمل على أن تغطّي بظلّها القسّ وإناء الفضّة، بينما بقي هو تحت الشمس، فظهر أشدّ حمرة بالمقارنة مع ألوان القسّ البيضاء والسوداء. علا وجهه الوقار، فتخشّب بشكل يكاد أن يثير الأسى. لقد تهيّأ له، أنّه الآن، هو سيّد المشهد، وأنّه تلقّى من الربّ مهمّة حماية الإناء المقدّس وزيته. لكنّ هذا لم يمنعه من الضحك بصمت في سرّه، وهو يكزّ على أسنانه كلّما رأى كبار السنّ يندفعون، عند مرور الأسرار المقدّسة، لينزلوا عن الشرفة بطريقة مضحكة، وكلّما رأى الصبية يركعون وهم يديرون وجوههم نحو الجدار وليس نحو القسّ. ثمّ كانوا سرعان ما ينهضون ليلتحقوا بموكب الأسرار المقدّسة. وكان يهزّ الجرس أمام كلّ باب، ليُعلم الناس بمرور المقدّسات. فكانت الكلاب تنبح، بينما تصمت أصوات آلات النسيج، وكانت النساء يبرزن وجوههنّ الضخمة من النوافذ، ومن الأروقة الخشبيّة: لقد اجتاح البلدة لغزٌ غامض، هزّها كلّها.

كما أنّ هناك امرأة صعدت من النبع وهي تحمل جرّة ماء على رأسها، فتوقّفت ووضعت الجرّة على الأرض ثمّ سجدت قرب مكانها.

امتقع وجه القسّ لأنّه عرف في المرأة إحدى خادمات آنييزه. أجل، ها هو الماء الذي ستغسل به آنييزه دموعها. بل بدا له أنّ تلك الجرّة بالذات باكيةٌ، رطبةٌ بدموعها اللامعة. فزع فزعاً جعله يشدّ بين يديه على الإناء الفضّيّ، وكأنّما ليستمدّ العزمَ منه.

كان عدد الفتية في الموكب يزداد كلّما اقتربوا من بيت العجوز. ها هو البيت على طرف الطريق، أي بين الطريق والوادي. إنّه بيت مرتفع البنيان، من حجر مموّج، بنافذة واحدة بلا زجاج، يمتدّ أمامه فناء ترابيّ، ويحيط به سور منخفض.

كان الباب مفتوحاً، وكان القسّ يعلم أنّ المريض ممدّد على حصيرة في الغرفة الأرضيّة. لهذا فقد دخل وهو يصلّي، بينما أغلق أنتيوكو المظلّة، وهو يهزّ الجرس بعنف ويحركه في اتّجاه الفتية ليطردهم، كما يُطرد الذباب. لكنّ الغرفة الأرضيّة كانت فارغة، ولا أحد على الحصيرة. لربّما سمح المريض بأن يضعوه على السرير، أو أنّهم تمكّنوا من نقله بسهولة، بما أنّه كان يحتضر.

دفع القسّ بابَ غرفةٍ داخليّة أخرى، فكانت هذه فارغة أيضاً: أطلّ عندها من الباب، فرأى حفيدة العجوز تنزل على الطريق وهي تعرج وتلهث، وتحمل قارورة في يدها. كانت عند حارس البلديّة لتأخذ منه الدواء.

"أين هو المريض؟"، سألها القسّ وهي تدخل وترسم إشارة الصليب. عندما لم تجد جدّها على الحصيرة، فنجلت عينيها وأطلقت صرخة رعب قويّة.

في الخارج، قفز الفتية نحو الباب وكانوا يتجسّسون من فوق السور، وبما أنّ أنتيوكو كان يقاوم غزوتهم تلك فقد دفعوه بقوّة، بل بدأوا في شدّ شاله وثوبه. لكنّهم انسحبوا بصمت، حالما ظهر القسّ على الباب، وهو مازال يحمل الإناء الفضّيّ في يده، بعد أن كان يتبع العرجاء عبر الغرف الداخليّة.

"إنّه غير موجود! أين يمكن له أن يذهب؟"، صرخت حفيدة العجوز، وهي تجري هنا وهناك في أنحاء البيت.

عندها برز طفل من بين الشجيرات على حافّة الطريق، وقال بكلّ هدوء وطمأنينة، ويداه في جيبيه: "هل تبحثون عن الملك؟ لقد نزل إلى تحت".

"تحت، أين؟"

"تحت"، كرّر الطفل وهو يشير بأنفه نحو الوادي.

أسرعت الحفيدة ونزلت عبر الطريق، والفتية يجرون وراءها، عندها أشار القسّ إلى أنتيوكو كي يفتح المظلّة، ثمّ توجّه اثناهما نحو الكنيسة وسارا بكلّ هدوء ووقار، صامتين، بينما خرج الناس إلى الطرقات، وخبر هروب العجوز ينتقل من فم إلى فم.

عاد باولو ووقف من جديد أمام المائدة، في غرفة الطعام الصغيرة الهادئة، حيث كانت الأمّ تخدمه.

كان هناك، لحسن الحظّ، أمرٌ ما يتحدّثان به، فتحدّثا عن هروب الملك نيكوديمو. أمّا أنتيوكو، فقد ركن الإناء والكيس والشال وجرى من جديد ليستفهم حول مجريات الأمور. عاد في البدء بأخبار غريبة تقول إنّ العجوز قد اختفى، كما يقال إنّ بعض أقربائه قد نقلوه ليستولوا على كنوزه. كما مزح أحد المهرّجين قائلاً:

"يقال إنّ كلبه وصقره نزلا وحملاه، ثمّ نقلاه سويّة".

"أنا لا أصدّق هذا بالنسبة للكلب، لكن أصدّق ما قيل عن الصقر، لأنّي أذكر عندما كنت طفلاً أنّ صقراً نزل مرّة إلى رواق البيت ثمّ طار بعد أن خطف خروفاً سميناً".

لكنّ أنتيوكو عاد مرّة أخرى بخبر جديد يقول إنّ المريض قد شوهد على الطريق، وكان يحاول العودة إلى الجبل ليموت هناك. كانت حمّى

الاحتضار تدفعه إلى الأمام، فكـان يمـشي كالـسائر في منامـه. وقـد قـام أقرباؤه بمرافقته إلى كوخه، وحاولوا ألا يثيروه ولا يؤذوه.

"اجلس وتناول طعامك"، قال القسّ للفتى. فاتّخذ أنتيوكو مكانـه إلى المائدة، لكن ليس قبل أن يتأكّد من ردّة فعل أمّ القسّ، من خـلال تعابير وجهها.

ابتسمت أمّ القسّ له بالفعل، ثمّ أشـارت إليـه بـأن يطيـع القـسّ. لذلك فقد انتابه انطباعٌ بأنّه أصبح فرداً من أفراد العائلة.

لكـنّ ذلـك الـساذج الـبريء، لم يـدرك أنّ كـلا الاثـنين شـعرا بالخوف من البقاء وحـدهما، بعـد أن انتـهى الكـلام بقـصّة العجـوز. خاصّة وأنّ الأمّ لاحظت أنّ عـينيّ ابنـها، الـشاردتين القلقـتين، كانتـا تثبتان بين الحين والآخـر. يعتّمهمـا ظـلام قلبـه، فتبـهتان وتتجمّـدان وتصبحان مثل الحجارة. كما كـان هـو يـضطرب، وتختـلج أوصـاله، كلّما لاحظ أنّها تراقبه، لتتكهّن بآلامه.

انتهت من خدمة المائدة، لكنّها لم ترجع إلى غرفتها الصغيرة.

عادت الظهيرة، وكان الطقس صافياً. وعنـدما هبّـت الريـاح ثانيـة، جاءت غربيّة رقيقة متناغمة، اهتزّت على وقعها أشـجار المرتفـع اهتـزازاً لطيفاً، فازدادت بهاء ونعومـة. كمـا تـسربّت انعكاسـات أوراق الـشجر، لتشيع برفيفها الـضاحك الفـرحَ في أنحـاء الغرفـة، وكـذلك فعـل ضـياء الـسماء المتموّج، الذي تسرّب من النافذة الصغيرة، بينمـا عـبرت الـسماء نتفٌ فضّيّة ناعمة من الغيوم، فعزفت الرياح عليها ألحانها الخفيفة.

فجأةً، قـرع أحـدهم علـى البـاب، فـتحطّم جـوّ الـسحر داخـل الغرفة. جرى أنتيوكو ليفـتح البـاب. وجـد وراءه امـرأة أرملـة شـابّة، ممتقعة الوجه، سوداء العينين، والفـزع بـادٍ فيهمـا. طلبـت المـرأة أن

تتحدّث إلى القسّ. وكانت يدها تمسك بقوّة بيد فتاة صغيرة، تتلوّى وهي تسحب أمّها إلى الوراء. كان شعرها الأسود منفوشاً تحت منديلها الأحمر، وكانت تزيّن وجهها المرضوض عينان خضراوان، باهرتان مثل عيني قطّ بريّ.

"إنّها مريضة"، قالت الأرملة، "أريد أن أرى القسّ ليقرأ عليها الأناجيل، ويطرد الأرواح الشريرة التي سكنت هذه الطفلة؟".

بقي أنتيوكو وراء الباب المفتوح الموارب حتّى منتصفه، وشعر بالتردّد والخوف. لم تكن تلك ساعة يمكن فيها إزعاج القسّ لمثل هذه الأمور. من جهة أخرى، أثارت الفتاة حزنه ومخاوفه، خاصّة أنّها لم تكفّ عن التلوّي بطرف جسدها، بل حاولت أن تعضّ يد أمّها بعد أن أخفقت في التخلّص منها.

"إنّها مهووسة، هذا هو الأمر"، تمتمت الأمّ وقد احمرّ وجهها من شدّة الخجل.

عندها لم يتردّد أنتيوكو في إدخالها، لا بل إنّه ساعد الأرملة في دفع الفتاة الصغيرة إلى الداخل، بعد أن تعلّقت بحافّة الباب.

استمع القسّ لتفاصيل الموضوع، وعرف أنّ المريضة الصغيرة تتلوّى منذ ثلاثة أيّام بهذه الطريقة، وأنّها كانت تحاول التهرّب، خرساء صمّاء أمام جميع محاولات طرد الأرواح منها. قرّبها القسّ إليه، وأمسكها من كتفيها وفحص عينيها وفمها.

"هل بقيتْ وقتاً طويلاً تحت أشعّة الشمس؟"، سأل.

"ليس هذا هو السبب، قالت الأمّ بصوت منخفض: " أظنّ أنّها مسكونة بأرواح شرّيرة"، ثمّ أضافت مؤكّدة وهي تبكي: "لا، لم تعد طفلتي تعيش وحيدة".

نهض وتوجّه نحو غرفته ليتناول كتاب الأناجيل، لكنّه ما لبث أن تراجع وأرسل أنتيوكو.

فتح الكتاب فوق الطاولة وبدأ في القراءة، بعد أن وضع يده على رأس الفتاة الساخن، وقد أمسكت به الأمّ بقوّة:

"وساروا إلى كورة الجدريين التي هي مقابل الجليل. ولما خرج إلى الأرض استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل، وكان لا يلبس ثوباً، ولا يقيم في بيت، بل في القبور. فلما رأى يسوع صرخ وخرّ له، وقال بصوت عظيم: ما لي ولك يا يسوع ابن الله العلي"؟ أطلب منك أن لا تعذبني".[1]

قلب أنتيوكو صفحة الكتاب وهو ينظر إلى يد القسّ المسنودة إلى الطاولة: وعنما وصل إلى عبارة "ما لي ولك؟" رأى اليد ترتعش قليلاً، فرفع عينيه بسرعة، ولاحظ أنّ عيني القسّ قد امتلأت بالدموع.

عندها استولى عليه انفعال عنيف، فانحنى وركع إلى جانب الأرملة، من غير أن يمنعه هذا من لمس الكتاب. فكّر في ذات نفسه: "إنّه أفضل شخص في هذا العالم، ها هو الآن يبكي لأنّه يقرأ كلام الله". ولم يجرؤ بعدها على رفع نظره ليراقبه. لكنّه كان يسحب الفتاة من تنّورتها، بيده الثانية، وذلك بحركة لا تخلو من الذعر، بل وبخوف خفيّ من أن تدخل الشياطين في جسده، بعد أن تخرج من جسدها.

توقّفت الفتاة عن التلوّي، لا بل إنّ جسمها تصلّب وبدا كما أنّه استطال بسبب العنق المسحوب، والذقن البارزة فوق عقدة المنديل، والعينين المثبّتتين على وجه القسّ. بدأ فمها ينفتح شيئاً فشيئاً، كما لو

---

(1) النص كما ورد في انجيل لوقا 8.

أنّها سُحرت بكلمات الإنجيل، وهمْسِ النسيم، وحفيف الأشجار على المرتفع. وفجأة، وتحت وطأة ضغط أشدّ من يد أنتيوكو، انحنت هي أيضاً وركعت، فبقيت معلّقة في الهواء يدُ القسّ التي كانت موضوعة على رأسها، وبدأ صوته يرتعش.

"أما الرجل الذي خرجت منه الشياطين فطلب إليه أن يكون معه، ولكن يسوع صرفه قائلا: ارجع إلى بيتك وحدث بكم صنع الله بك..."[1].

ثمّ صمت وسحب يده. هدأت الفتاة كلّ الهدوء والتفتت بوجهها شيئاً ما نحو أنتيوكو. أصبح صوت حفيف الأشجار أشدّ قوّة بسبب الصمت، كما وصل من بعيد ضجيج ضربات كسّارة الحجارة.

كان باولو يتألّم. فهو لم يصدّق أقلّ تصديق تطيّر الأرملة، ولا أنّ الطفلة مسكونة بالشياطين. بدا له إذن أنّه قرأ كلام الأناجيل دونما حظّ من الإيمان. فالشيطان الوحيد الموجود كان يسكن في داخله، وهذا لا، لم، ولن يخرج.

ومع هذا فقد شعر أنّه أصبح فجأة أقرب إلى الله: "ما لي ولك؟". وبدا له أنّ أولئك المؤمنين الثلاثة، فضلاً عن أمّه بالذات، والتي كانت راكعة خلف باب المطبخ، لم ينحنوا بسبب قوّته وسلطانه، بل نتيجة ضعفه وبؤس شأنه.

لكن عندما انحنت الأرملة وأخذت بتقبيل قدمه، انسحب هو بكلّ عزمه، لأنّه استحضر في ذهنه أمّه التي كانت تعرف كلّ شيء عنه، وخشي أن تحكم عليه بما لا يرضى.

---

(1) انجيل لوقا 8.

كانت حركة الأرملة وهي تنهض حركة امرأةٍ يائسة، حتّى إنّ الفتيَان شرعا في الضحك، كما أنّه أحسّ هو بالذات أنّ آلامه قد تلاشت.

"حسناً، انهضي"، قال لها. "هاك الأمر قد تحقّق".

عندها نهض الجميع، وجرى أنتيوكو ليفتح الباب الذي طرق أحدهم عليه من جديد. كان ذاك هو حارس البلديّة مع كلبه المكمّم.

قال له أنتيوكو في الحال، ووجهه يشعّ سروراً: "لقد حدثت الآن معجزة. لقد طرد الشياطين من جسد نينا مازِيَا".

لكنّ الحارس لم يكن يعتقد بالمعجزات. فتنحّى قليلاً عن الباب وقال: "فلندعهم إذن يخرجون".

"سيدخلون في جسم كلبك".

"لا يستطيعون الدخول فيه، لأنّ فيه بعضاً منهم!".

كان يمزح دون أن يتخلّى عن شيء من رزانته. قدّم التحيّة العسكريّة أمام مدخل غرفة الطعام، قبالة القسّ. لكنّه لم يتواضع بإلقاء نظرة على النساء.

"أحتاج للتحدّث معك، على انفراد".

انسحبت النسوة نحو المطبخ، بينما ذهب أنتيوكو ليعيد الكتاب إلى موضعه. ومع أنّه ما زال يشعر بالانفعال نتيجة المعجزة، فإنّه توقّف ليختلس السمع إلى كلام الحارس. كان هذا يقول: "أطلب المعذرة عن إدخال هذا الحيوان، لكنّه نظيف، وهو لن يزعج أحداً، لأنّه يدرك أين هو". وفي الواقع فقد بقي الكلب هادئاً، خافض البصر، متدلّي الذنب. "يتعلّق الأمر بالعجوز نيكوديمو بانِيا،

المعروف بالملك نيكوديمو. لقد عُثر عليه في كوخه، وعبّر عن رغبته بأن يجتمع بك وينال المسحة الأخيرة. بحسب رأيي المتواضع...".

"إلهي القدّوس!" قال القسّ وقد فقد صبره. لكنّه سرعان ما ابتهج كالأطفال عندما فكّر أنّ هذا سيتيح له فرصة الصعود إلى قمّة الجبل، والترويح، بشكل أو بآخر، عن نفسه، وتخليصها من عذابها البائس.

"أجل، أجل"، أضاف في الحال، "علينا أن نجد حصاناً. كيف هي الطريق؟".

"سأدبّر أنا الحصان وسأتدبّر أمر الطريق، هذا واجبي".

قدّم له القسّ الشراب. لا يقبل الحارس عادة، ومن حيث المبدأ، أيّة ضيافة، ومن أيٍّ كان، لا يقبل حتّى كأساً من نبيذ. لكنّه، في تلك المناسبة، قَبِل دعوةَ القسّ، لأنّه شعر أنّ واجبه المدنيّ ينصهر مع واجبه الدينيّ إزاء القسّ. وهكذا فقد شرب ودَلَقَ القطرات الأخيرة على الأرض – لأنّ الأرض تريد حصّتها من كلّ شيء يستهلكه الإنسان – وقدّم شكره بتقديم التحيّة العسكريّة. رأى باولو الكلبَ يهزّ عندها ذنبه، ويرفع عينيه لينظر إليه بتعابير الصداقة.

كان أنتيوكو جاهزاً لفتح الباب، ثمّ دخل إلى غرفة الطعام ووقف هو أيضاً في وضعيّة الاستعداد. لكنّه شعر بالأسف لأنّ أمّه بقيت تنتظر عبثاً زيارة القسّ المتوقّعة في هذا اليوم، وهي تقف الآن في غرفة خلف المحلّ، نظّفتها ورتّبتها، وأعدّت صينيّة الاستقبال لهذه المناسبة. لكنّ الواجب هو أهم من كلّ شيء.

"ماذا عليّ أن أحضر؟" سأل بلهجة تحاكي لهجة الحارس الرزينة. "هل يجب أن نأخذ المظلّة أيضاً؟".

"أوه، وكيف ذلك؟ سأذهب على الحصان، وليس عليك أن تأتي، لكنّه بوسعي أن آخذك على صهوة الحصان".

" سأذهب سيراً على الأقدام. إنّي لا أتعب أبداً".

وفي الواقع فقد أصبح جاهزاً في غضون دقائق قليلة، حمل علبة صغيرة في يده، وشاله الأحمر مطويّ على ذراعه، وكان بودّه أن يأخذ معه المظلّة أيضاً، لكن لابدّ من إطاعة أوامر كبارنا.

وقف ينتظر القسّ أمام الكنيسة، بينما تحلّق حوله فتية شعث، غبر، مشرّدون، ممّن كانت الفسحةُ ساحةَ معاركهم المعتادة، لم يجرؤوا على الاقتراب كثيراً منه، بل وقفوا ينظرون إلى الصندوق الصغير بفضول كبير، وبتديّن لا يخلو من بعض الرعب.

"نحن سنتبعك"، قال أحدهم.

"لا، ستبقون بعيدين ألف متر، وإلا أطلقت عليكم كلبَ الحارس بعد أن أخلع كمّامته". "كلب الحارس؟ إنّك لأنت الذي ستبقى بعيداً ألف متر عن كلب الحارس". "أنا؟" أجابهم بابتسامةٍ تكبّر. "أجل أنت، أنت الذي تظنّ نفسك الآن الإلهَ بذاته، لأنّك تحمل الإله بين يديك".

"أنا لو كنت مكانك – قال فتى جريء – لكنتُ هربتُ بهذا الصندوق، واستعملتُ الزيت المقدّس في كثيرٍ من أعمال السحر".

"أغرب عن وجهي يا ذبابة الفرس المقيتة! يبدو أنّ الشيطان خرج من جسد نينا مازيّا ليحلّ في جسدك".

"ماذا؟ الشيطان؟".

"أجل"، أجاب أنتيوكو بوقار، "لقد قام اليوم بعد الظهر بطرد الشيطان من جسد نينا مازيّا. ها هي قادمة".

خرجت الأرملة من بيت القسّ، وهي تقود الفتاة من يدها. فاندفع الفتية للقائهما، وانتشر في دقائق خبرُ المعجزة في أنحاء البلدة. شوهد عندها منظرٌ يكاد يذكّر بمشهد قدوم القسّ. فقد تجمّع كلّ الناس في الساحة، ووضعت أمّ نينا مازيّا ابنتها على درج باب الكنيسة. كانت سمراء، مخشّبة، وبدت، بعينيها الخضراوين ومنديلها الأحمر، كأنّها صنمٌ منصوبٌ أمام أولئك الناس المتديّنين البسطاء.

أمّا النساء فكنّ يبكين ويرغبن بلمسها. في هذه الأثناء وصل الحارس مع كلبه، واجتاز القسّ الساحةَ وهو على صهوة الحصان. ذهب الناس مواكبَ مواكبَ للقائه، وهم يتمتمون، بينما كان هو يقوم بإشارات بيده، وهو يتلفّت هنا وهناك ليشكرهم. إلا أنّ هذا سبّب له الألم، والسأم أكثر من الألم. عندما وصل إلى بداية انحدار الطريق، لجم الحصان وبدا كأنّه يريد أن يقول شيئاً. لكنّه ما لبث أن وكز الحيوان وابتعد بسرعة. كانت تعتمل في قلبه غريزةٌ يائسة، جعلته يتوق للجري، لأن يبتعد، لأن يهرب عبر الوادي أسفل منه. كان يشعر بالحيرةِ، وبتشتّتِه كلّه، بتشتّتِ وجوده، عبر الفضاء الموحش المفتوح أمامه.

اشتدّ عصف الرياح، فبدأت الشجيرات تهتزّ، وتتحرّك البقع الخضراء، وتلمع تحت ضوء الظهيرة البرّاق. كما عكس النهرُ زرقةَ السماء، وارتفع ضجيج المطحنة، حتّى ليظنّ أنّها تطحن قطع ألماس. كان الحارس مع كلبه، وأنتيوكو الذي يحمل الصندوق، يهبطان بوقار. وقد ازداد هذا الوقار بسبب إحساسهما بأنّهما يؤدّيان واجبهما. أمّا هو فقد عادت إليه الطمأنينة، فغذّ سيره على الطريق التي تفضي بعد النهر، إلى درب يصعد نحو الجبل. تملأُ الدرب الحجارة، وتصطفّ حولها أسوار صغيرة، وأشجار مائلة، وبقع عليق. كما

كانت رياح الغرب تضخّ في الهواء حلاوتها الساخنة، وتضمّخه بعطورها الفوّاحة: كانت تحمل أزهار الزعتر والورود البريّة، وتبعثرها في أنحاء المكان.

تواصل صعود الطريق، بعد أن غابت البلدة عن الأنظار، وما إن انعطف الدرب حتّى أصبحت الرياح في كلّ مكان، وتجمّعت الحجارة وانتشرت الأبخرة، لتجمع عند الأفق الأرضَ بالسماء.

من حين لآخر كان الكلب ينبح، فيبدو أنّ كلاباً بريّة أخرى تجيبه، لكنّه كان الصدى.

في منتصف الطريق اقترح القسّ على أنتيوكو بأن يعتلي صهوة الحصان، لكنّ الفتى رفض، بل إنّه لم يقبل بإعطائه الصندوق الصغير إلا بعد لأيٍ، وبصعوبة.

عندها فقط سمح لنفسه بالتحدّث إلى الحارس، إلا أنّ محاولته باءت على أيّ حال بالفشل، ذلك أنّ الحارس لم ينقطع ولو للحظة واحدة عن الظنّ بأنّه مخوّل بأعلى سلطة، لهذا كان يقف، من حين لآخر مقطّب الجبين، ليعدّل وضع واقي الطاقيّة على جبهته، وليلقي نظرة هنا وهناك، وكأنّ جميع الأراضي حوله هي أرضه، وعليه أن يدفع عنها أيّ خطر قد يدهم ويهدّدها. وكان الكلب ينتصب أيضاً على قوائمه الأربعة، ليشمّ الريح، وهو يرتعش فتهتزّ أذناه ويهتزّ عنقه.

لحسن الحظّ كان الجوّ صافياً في تلك الظهيرة العاصفة. فظهرت على خلفيّة الغيوم الزهريّة، عنزات رشيقة سوداء، انتصبت على قمم الصخور المبعثرة في صحراء قوامها الحجارة وبقع الشجيرات.

ثمّ ظهر منخفضٌ، غطّته كتلٌ من الغرانيت، فبدا كأنّه شلال حقيقيّ، لكنّه مؤلّف من حجارة تراكمت على بعضها بخفّة إعجازيّة.

تذكّر أنتيوكو هذا المكان، فقد سبق له أن زاره برفقة أبيه. واستطاع لذلك تسلّق الصخور، فصعد عليها الواحدة بعد الأخرى، حتّى وصل قبل القسّ إلى كوخ الصيّاد العجوز. ذلك أنّ القسّ دار دورة طويلة كي لا يتنحّى عن الدرب، وقبل الحارس بالطبع، لأنّه كان يلحق بالقسّ ليكون أميناً على عهدته.

كان الكوخ مصنوعاً من أفرع الأشجار وأوراقها، يحيط به سور من الصخور. وقد عمل العجوز الوحداني، على تحسين هذا النوع من القلعة ما قبل التاريخيّة، بتجميع أحجار أخرى حول صخور السور.

انحرفت أشعّة الشمس فوق المكان كما لو أنها تميل على أعماق بئر. فالأفق المغلق في ثلاث جهات، ينفتح بين الصخور المتراكمة في ناحية اليمين، ويكتسب في بُعدِهِ لوناً أزرق ما يلبث أن ينحلّ داخل شريط فضّيّ، شريط البحر. أطلّ حفيد العجوز برأسه الأسود ذي الشعر الأجعد، من فتحة الكوخ. فأخبره أنتيوكو: " لقد جاؤوا".

" من هم الذين جاؤوا؟".

"القسّ والحارس".

نهض الرجل رشيقاً بوبر جسمه الذي يجعله شبيهاً بعنزاته، وبدأ يشتم ذلك الحارس، الذي لا ينقطع عن دسّ أنفه في أمور الآخرين.

"أمّا الآن فسأحطّم له أضلاعه"، هدّده، ثمّ ما لبث أن تنحّى عنه عندما رأى الكلب. لكنّ كلب العجوز اقترب من الكلب الثاني، وبدأ كلّ منهما يشمّ الآخر ليحيّيه.

استعاد أنتيوكو الصندوق الصغير، وجلس على حجر إلى جانب فتحة السور الزرقاء. رأى من هناك عدداً لا متناهياً من جلود الخنازير

البرّية المخطّطة بألوان رماديّة وسوداء، وجلود النمس المبقّعة باللون الذهبيّ، منشورة جميعها لتجفّ على الصخور. بينما تمدّد جسم العجوز المسودّ، على جلود أخرى منشورة داخل الكوخ، كما برز وجهه الغامق، محاطاً بهالة لحيته وشعره الأبيض، وعليه علامات الموت الوشيك.

انحنى القسّ ليستجوب المحتضر، لكنّ هذا لم يجب، وبقيت عيناه مغلقتان، بينما ازرقّت شفتاه، وظهرت نقطة دم على طرف فمه.

جلس الحارس أيضاً على صخرة أخرى، بينما تمدّد كلبه أمام قدميه وهو يحدّق في أنحاء الكوخ، وكأنّه يزدري عصيان العجوز لأوامر القانون، أي أنّه لا يبوح برغباته الأخيرة. أمّا أنتيوكو فكان ينظر خلسة إلى الطرف الآخر، ويلوك أفكاراً خبيثة تحدّثه بأنّ الحارس راغبٌ بإطلاق كلبه على ذلك العجوز العنيد، وكأنّه لصّ من اللصوص.

كان القسّ يزداد انحناء داخل الكوخ وهو يشدّ على يديه المضمومتين بين ركبتيه، كما كانت جبهته تُثْقِل وجهه المتعب، وتبرز شفتاه بنوع من الاشمئزاز.

بدوره التزم الصمت، بدا الآن كما لو أنّه نسي سبب وجوده في هذا المكان، بدا كأنّه لا يسمع إلا نفخ الريح الشبيه بهدير البحر. قفز كلب الحارس على حين غرّة وهو ينبح، بينما سمع أنتيوكو فوق رأسه حفيف أجنحة. التفت ليعرف ما الأمر، فرأى الصقر الذي ربّاه الصيّاد العجوز يحوم فوق الصخور. كان ذا منقار حادّ على شكل قرن صغير، وكان جناحاه الكبيران ينفتحان ويخفقان ببطء كأنّهما مروحة سوداء ضخمة.

في الداخل كان باولو يفكّر: "هذا هو الموت الحقّ، لقد هرب هذا الرجل من الناس لأنّه خشي أن يقتل أحداً أو أن يرتكب الذنوب الكثيرة. وها هو الآن هنا، حجرٌ بين الحجارة. وهكذا سأصبح أنا أيضاً بعد ثلاثين، أو بعد أربعين سنة، بعد منفى أبديّ. ولربّما انتظرتني هي هذا المساء أيضاً...".

انتفض عندها. آه، إنّه لم يمت إذن، كما حسب وظنّ. كانت الحياة تنبض في داخله، وها هي الآن قد استيقظت، وتشبّثت فيه بقوّة وإصرار، كما الصقر بين الحجارة.

"قد يتحتّم علينا أن نقضي الليل هنا. إذا أمضيت هذه الليلة هنا من غير أن أقابلها، فسأكون سالماً وفي أمان. هيّا يا باولو، تشجّع".

خرج وجلس إلى جانب أنتيوكو، وهو يفكّر مهموماً. بدأ الغروب يصبغ الأفق بحمرته. وبدأت تطول داخل السور، ظلالُ الصخور والشجيرات التي تداعبها الرياح، فيُظنّ أنّ بقع الشمس هي التي ترتجف. وهكذا كان الأمر داخل نفسه، إنّه لا يستطيع أن يميّز بين رغباته، ليعرف أيّها أشدّ ثباتاً.

"لم يعد العجوز يتكلّم، إنّه يحتضر. سنجري له الآن المسحة الأخيرة. وإذا مات فلابدّ من تدبير أمر نقل الجثّة. لابدّ.." – أضاف في قلبه، من غير أن يقوى على إتمام الجملة: "من قضاء الليلة هنا".

نهض أنتيوكو وبدأ بالتحضير للمسحة الأخيرة، ففتح الصندوق وهو مسرور بإطلاق خطاطيفه الفضّيّة، ثمّ سحب المنديل، وسحب الإناء، وفرد الشال ووضعه على كتفه، حتّى بدا أنّه هو الكاهن بالذات.

عندما أصبح كلّ شيء جاهزاً، عادوا إلى الكوخ حيث كان حفيد العجوز راكعاً منحنياً ليسند رأس المحتضر.

انحنى أنتيوكو وركع في الطرف الثاني، فانتشرت أطراف الشال على الأرض، ثمّ غطّى بالمنديل الحجر الذي سيستخدمه كرسياً. وكان الإناء الفضّي يعكس لون الشال الأحمر.

ركع الحارس أيضاً في الخارج، وكلبه إلى جانبه.

دهن القسّ جبهة العجوز، وكذلك راحتي اليدين اللتين لم تريدا أبداً أن ترتكبا أيّ عمل عنيف، ثمّ القدمين اللتين حملتاه بعيداً عن الناس، بعيداً عن الشرّ بعينه.

أرسلت شمس المغيب ضياءها الأخير إلى داخل الكوخ. غمر الضوء أنتيوكو، فبدا بين المحتضر والقسّ، كأنّه جمرة مشتعلة بين قطعتي فحم مطفأتين.

"يجب علينا أن نعود"، فكّر باولو، "لا يوجد سبب لبقائنا هنا".

"وضعه خطير"، قال وهو يخرج من الكوخ، "لم يعد يعي أيّ شيء".

"وضع غيبوبة"، أكّد الحارس موضّحاً.

"سيموت بعد ساعات قليلة. يجب تدبير أمر نقل الجثّة". رغب أن يضيف بعدها: "يجب أن نمضي الليلة هنا". لكنّه خجل من التظاهر بغير ما يضمر.

شعر من ناحية أخرى بضرورة السير والعودة. مع هبوط المساء بدأت الخطيئة تستهويه من جديد، وتضغط عليه داخل شبكة الظلّ. وكان هو يلاحظ الأمر، بل ويشعر بالرعب منه. لكنّه كان يقظاً في الواقع، شعر أنّ ضميره حيّ وقادر على دعمه.

"إن انقضت هذه الليلة من غير أن أراها، فسأكون في أمان".

لو أفلح مخلوقٌ في إبقائه هنا! لو أنّ العجوز قام وأمسك بطرف ثوبه!

لكنّه عاد إلى الجلوس، حاول أن يكسب مزيداً من الوقت. غابت الشمس وراء الحدود الأخيرة التي تحدّ الجبل، وكانت تنتصب جذوع السنديان على خلفيّة الأفق الحمراء، كأنّها أعمدة رواق يعلوها إطار أسود ضخم. حتّى الموت لم يكن قادراً على الإخلال بسلام تلك العزلة، تلك الوحدة العظيمة.

كان باولو يشعر بالتعب، كان منهكاً. إنّه يرغب الآن بصنع الذي رغب بفعله في الصباح عندما كان أمام المذبح، إنّه يرغب بالتمدّد على الصخور وأن ينام.

اتّخذ الحارس من جانبه قراراً، فلقد ركع بدوره قرب المحتضر، وبدأ يهمس في أذنه بعض الكلام. كان الحفيد ينظر إليه بريبة، وبشيء من السخرية أيضاً. اقترب من القسّ وقال له: "لقد قمت بواجبك على أتمّ صورة، فاذهب الآن، اذهب بأمان الله، فأنا أعرف ما الذي يجب فعله".

عاد الحارس وخرج.

"لقد توقّف عن الكلام"، قال، "لكنّ إشارة منه أفهمتني أنّه قام بتسوية كلّ أموره. نيكوديمو بانيّا"، أضاف بعد أن التفت إلى الحفيد، "هل تؤكّد لنا بكلّ ضميرك، أنّه بوسعنا أن نذهب مطمئنّين؟".

"كان بوسعكم ألا تأتوا على الإطلاق، لو ما كان عليكم القيام بواجب المسحة الأخيرة المقدّس. فماذا يهمكم من أمري؟".

"يجب احترام القانون! يجب ألا ترفع صوتك يا نيكوديمو بانيّا".

"كفى الآن، لا تصرخا"، قال القسّ وهو يشير إلى الكوخ.

فأعلن الحارس بلهجته الرسميّة: "إنّك تعلّمني أنّ هناك في الحياة واجب واحد: هو أن يقوم كلّ منّا بواجبه".

نهض القسّ وقد وخزته هذه الكلمات. لقد أصبح كلّ شيء يكلّم قلبه، بل بدا له أنّ الله بذاته هو الذي يعبّر عن إرادته بلسان الناس.

اعتلى صهوة الحصان وهو يقول لحفيد العجوز:

"لا تترك جدّك حتّى يلفظ أنفاسه الأخيرة. إن الله كبير ونحن لا نعلم ما الذي يمكن أن يحدث".

رافقه الرجل خلال مقطع من الطريق.

"اسمع"، قال عندما أصبحا بعيديْن عن الحارس، "أجل، لقد أعطاني جدّي النقود. ها هي، تحت إبطي. إنّها ليست كثيرة، لكن هل هي لي، بلغت ما بلغت؟".

"إذا كان قد أعطاها لك وحدك، فهي لك"، أجاب باولو، ثمّ التفت ليرى فيما إذا كان الآخران يتبعانهما.

كانا يتبعانهما. كان أنتيوكو يتوكأ على عصا صنعها من غصن إحدى الشجيرات، أمّا الحارس فقد التفت، قبل أن ينعطف نحو الدرب، وأدّى التحيّة العسكريّة باتّجاه الكوخ، كان يحمل واقي طاقيّته وكانت أزرار سترته تلمع بانعكاسات المغيب. لقد أدّى التحيّة للموت. وبدا أنّ الصقر قد أجابه من مكمنه، فضرب بجناحيه للمرّة الأخيرة، قبل أن يخلد للنوم.

كانت الظلال ترتفع مسرعة من الوادي، وسرعان ما أحاطت بالرحّالة الثلاثة. لكن، وعند منعطف الدرب، أنار طريقهم ضوء بعيد قادم من البلدة. بدا أنّ حريقاً كان يشتعل هناك. كان هناك لهب ساطع يشتعل فوق المرتفع. وقد تمكّن الحارس أن يميّز بنظره الثاقب أشباحاً عديدة تتحرّك في ساحة الكنيسة.

كان يوم سبت، ولابدّ أنّ الجميع قد عادوا إل بيوتهم، لكنّ هـذا لا يفسرّ وجود تلك النيران، وذلك الاضطراب غير المعهود.

"أنا أعرف السبب"، قال أنتيوكـو بغبطـة ظـاهرة. إنّهـم ينتظـرون عودتنا لأنّهم يريدون أن يحتفلوا بمعجزة نينا مازيّا".

"آه، يا إلهي! يا إلهي! إنّك حقّاً أحمق يـا أنتيوكـو"، صـرخ القـسّ وهو ينظر بشيء من الفزع إلى المنخفض المضاء بالنيران، تحت البلدة.

لم ينبس الحارس ببنت شفة، كان في صـمته نـوع مـن الازدراء. نبح الكلب عندما هزّ له الجنزير. وعندما تـردّد مـن الـوادي الـصدى، سمعه القسّ، من خلال أحزانه، كأنّه صرخات مبحوحة، كأنّه صـوت غامض يحتجّ عليه، ويؤنّبه على استغلاله بساطة رعايا كنيسته.

"ماذا فعلتُ بهم؟" تساءل. "لقد استغبيتهم، كما استغبيت نفـسي. أنقذنا يا إلهي جميعنا".

وهنا اعترته جملة من الأفكار البطوليّة: كأن يقف عنـد وصـوله، وسط جمهوره من المؤمنين، ليعترف بذنبـه وببؤسـه، ويفـتح صـدره أمامهم، فيتلألأ قلبه البائس المحروق بلهب آلامه المشتعلة بأشـدّ مـن نيران الأغصان على المرتفع.

لكنّ صوتاً صعد من أعماق ضميره وقال له:

"إنّهم يحتفلون بإيمانهم، يحتفلون بالله من خلالك. ولا يحقّ لك أن تحول ببؤسك هذا بينهم وبين الله".

ثمّ جاء صوت آخر من مكان أعمق قال له: "ليس الأمر على هـذا الشكل، لأنّك مجرّد جبان. وأنـت تخـاف مـن عـذاب الألم، مـن أن تحترق بالفعل".

وبمقدار ما كان يقترب من البلدة، من الناس، كان يشعر بمزيد من الضياع. فما العمل؟ بدا له أنّ أضواء النيران وظلالها الآتية من المرتفع، والتي كانت تسفع كلّ شيء حوله، فوق كلّ حجر، فوق كلّ جذع شجرة، إنّما كانت صادرة من أعماق ضميره. فأيّها كانت الحقيقة: البيضاء أم السوداء؟

تذكّر لحظة وصوله إلى البلدة قبل سنين عديدة. وتذكّر أمّه التي كانت تتابع خطواته، كما تتابع الأمّ طفلها، وهو يخطو خطواته الأولى.

"وقد وقعتُ أمامها... فظنّت أنّها أنهضتني، لكنّي أصبت بجرح مميت. يا إلهي، يا إلهي...".

شعر على حين غرّة بنوع من الارتياح، عندما فكّر أنّ ذلك الحفل المرتجل سينتشله من حمأة آلامه، ولربّما من كلّ خطر...

"سأستدعي شخصاً ما إلى البيت، وأقضي هذه الليلة معه. عندما يتأخّر الوقت... وينقضي الليل فسأكون في أمان".

أصبح من المستطاع تمييز الأشياء. هناك في الأعلى الرؤوس السوداء فوق قبّعات الرجال وهم يطلّون من على شرفة الساحة، وهناك أعلى منهم ألسنةُ اللهب، تحيط بالكنيسة الصغيرة من جهتيها، وتخفق كأنّها رايات حمراء، أمّا النواقيس فلم تكن تقرع مثلما قرعت في المرّة الماضية، لكنّ عزف الأكورديون كان يصاحب كالبكاء الحزين وميضَ الضوء وخفقانه في أنحاء المكان.

ثمّ ها هو يظهر، فوق برج الكنيسة، نجمٌ فضّيٌّ ما لبث أن تحطّم وتلاشى على وقع انفجار دوّى في أنحاء الوادي. تبع ذلك صيحات

فرح، ثمّ ومضات بهاء رائعة أخرى، ودويّ طلقات ناريّة. كانوا يطلقون النار علامة على سعادتهم وفرحهم، كذلك يفعلون خلال أماسي الأعياد المجيدة.

"لقد جنّ جنونهم"، قال الحارس. ثمّ اندفع بكلّ قوّته إلى الأمام، بينما كلبه ينبح بغضب، كما لو أنّ هناك تمرّداً يجب إخماده.

أمّا أنتيوكو فقد رغب بالبكاء. نظر إلى القسّ، وهو منتصب على صهوة حصانه، فتخيّله قدّيساً يقود موكباً دينيّاً، خاصّة وأن اثنيهما ظهرا أسودين وسط وضح النيران.

ومع هذا فقد فكّر: "لا بدّ أنّ هؤلاء الناس السعداء سيكونون صفقة رابحة بالنسبة لأمّي".

وهكذا فقد شعر بسعادة كبيرة، فنشر الشال ورماه على كتفه، ثمّ طلب الصندوق من غير أن يترك عصاه، ودخل على هذه الحال إلى البلدة، كأنّه واحد من ملوك المجوس الثلاثة[1].

أطلّت حفيدة الصيّاد العجوز من على باب بيتها، وسألت القسّ عن أخبار جدّها.

"كلّ شيء على ما يرام".

"يعني إذن أنّ وضع جدّي قد تحسّن"

"لا بدّ أنّ جدّك قد مات في هذه الأثناء".

أطلقت الفتاة صرخة، كانت نغمةً نشاز وسط جوّ الاحتفال.

---

(1) جاء في إنجيل متّى أنّ ثلاثة ملوك من المجوس جاؤوا من الشرق وتعقّبوا نجماً قادهم إلى بيت لحم حين ولادة السيّد المسيح.

بدأ الفتية ينزلون للقاء القسّ، ثمّ أحاطوا بحصانه كأنّهم سرب ذباب، وتوجّهوا جماعةً ليصعدوا نحو الساحة. لم يكن الناس هناك كثيرون، كما يظنّ الذي يراهم عن بعد، لأنّ الظلال ضاعفت عددهم. فرض وجود الحارس مع كلبه نوعاً من النظام في المكان، فالرجال اصطفّوا على نسق واحد قرب الشرفة وتحت الأشجار المطروقة بضياء النيران، وتجمّع آخرون ليشربوا أمام حانة أمّ أنتيوكو الصغيرة، بينما جلست النساء على درجات الكنيسة وهنّ يحملن أطفالهنّ على أذرعهنّ، وبينهنّ نينا مازيّا، هادئة مطمئنّة كأنّها قطّة نائمة.

بدا الحارس مع كلبه، كأنّه تمثال منصوب في وسط الساحة.

عندما ظهر القسّ، تحرّك الجميع وأحاطوا به. لكنّه همز حصانه خفيةً، فأسرع هذا ونزل من الطرف المقابل للكنيسة، متوجّهاً نحو بيت صاحبه.

كان صاحب الحصان من بين الذين تجمّعوا ليحتسوا الشراب أمام الحانة. ما إن رأى الحصان حتّى تقدّم نحوه، والكأس في يده، ثمّ لجم رسنه وأوقفه.

"ها، أيّها المزعج، ماذا تحاول أن تفعل. ها أنذا، هنا".

توقّف الحصان فجأة، ومطّ شفتيه إلى وسط لجامه كأنّه يريد أن يشرب من نبيذ صاحبه. حاول القسّ عندها أن يترجّل، لكن الرجل أمسك بقدمه ومنعه، ثمّ قاد الفرس والفارس نحو الحانة، ومدّ يده بكأسه نحو صديق كان يحمل القارورة في يده.

كان الجميع، رجالاً ونساء، مجموعين حول المكان. بدأت أمّ أنتيوكو تتأمّل المنظر وهي تبتسم. ظهرت ممشوقة القامة،

غجريّة الشكل، على خلفيّة باب الحانة المذهّب، كما بدا وجهها تحت أضواء النيران كأنّه قدّ من نحاس. أمّا الأطفال النائمين على أذرع أمّهاتهم فقد استيقظوا مرعوبين بعض الشيء، فلمعت، على وقع حركاتهم، التمائم المرجانيّة والذهبيّة التي كان الجميع هنا يتزيّن بها، فقراء كانوا أم أغنياء. وسط التماوج الرماديّ الذي أثارته الجموع، ظهر القسّ على جواده، وكأنّه الراعي وسط قطيعه.

وضع رجل عجوز أبيض اللحية يده على ركبة القسّ، ثمّ التفت نحو الناس، وصاح بهم بصوت يملأه الانفعال: "أيّها الناس، هذا الرجل هو رجل ربّانيّ بالفعل".

"اشرب إذن، وضاعف لنا النبيذ"، صاح صاحب الحصان وهو يمدّ يده بكأس أخذها باولو وقرّبها حالاً إلى شفتيه. لكنّ أسنانه كانت ترتجف وراء الشفتين، وبدا له دماً النبيذُ الذي حمّرته انعكاسات النيران.

جلس من جديد إلى مائدته، في غرفة الطعام الصغيرة وقد أضيئت بمصباح الزيت. كان القمر يصعد كقرص مذهّب في السماء الباهتة، فوق المرتفع الذي بدا جبلاً خلف النافذة.

بقي معه حتّى تلك اللحظة بعض أبناء بلدته، أي العجوز ذي اللحية البيضاء، وصاحب الحصان، وغيرهما. وكان قد دعاهم لقضاء السهرة بصحبته. كانوا يشربون ويمزحون ويقصّون قصص الصيد. كان العجوز ذي اللحية البيضاء صيّاداً أيضاً، لذلك فقد بدأ ينتقد الملك نيكوديمو، فقال إنّ العجوز المنعزل لم يكن يمارس الصيد بحسب القوانين الإلهيّة.

"لا أريد أن أسيء إليه، وهو الآن في النزع الأخير، لكنّ الحقيقة أنّه كان يمارس الصيد بدوافع تجاريّة فقط. لقد حقّق خلال هذا الشتاء الماضي أرباحاً بآلاف الليرات من بيع جلود النمس. إنّ الله يسمح بقتل الحيوانات لكن ليس بإبادتها. أمّا هو فكان كثيراً ما يصيدها بالفخّ، وهذا غير مسموح. لأنّ الحيوانات تتألّم مثلنا، ولابدّ أنّ الساعات التي تقضيها داخل الفخّ هي ساعات رهيبة بالفعل. لقد رأيت ذات مرّة بعينيّ هاتين فخّاً علِق داخله مخلبُ أرنب. هل تفهمون هذا؟ لقد رأيت أن الأرنب الذي وقع في الفخّ قد قضم لحم قدمه وانتزعها من جسمه لكي يتحرّر من الفخّ. ثمّ ما الذي كان يفعله نيكوديمو بالنقود؟ كان يخبّئُها. خبّأها ليشربها حفيده الآن في بضعة أيّام".

"جُعلت النقود لكي تُنفق". قال صاحب الحصان، وكان رجلاً متبجّحاً مغروراً. "لذلك فإنّي أصرفها على الدوام وأتلذّذ بها، على ألا أسيء لإنسان. ذات مرّة كنّا في عطلة، ولم أكن أعرف ماذا أفعل، لذلك فقد أوقفت تاجر غرابيل كان يعبر المكان بتجارته. اشتريت منه كلّ غرابيله، ثمّ بدأت بدحرجتها بقدمي، لأجري وراءها عبر الساحة، وأدحرجها من جديد. بعد لحظات اجتمع كلّ الناس حولي، ونحن نضحك ونصيح. قلّدني في البداية الصبية والفتيان، ثمّ جاء حتّى أشخاص وقورون وقلّدوني. كانت لعبة مازال الكثيرون يذكرونها. وفي كلّ مرّة كان القسّ القديم يراني فيها، كان يصيح من بعيد: أليس عندك، يا باسكوالِهْ مازيّا، غربالاً آخر تدحرجه؟".

ضحك المدعوّون، لكنّ القسّ كان شارد الذهن، شاحب اللون ومنهكاً. لذلك فإنّ العجوز ذا اللحية البيضاء، الذي كان يراقبه بشيء من التقديس، أشار نحو أصدقائه في دعوة لهم إلى الانصراف. إذ حان وقت تسليم عبد الله هذا، إلى عزلته المقدّسة، وإلى راحةٍ يستحقّها.

نهض المدعوّون مع بعضهم، وألقوا التحيّة وهم ينسحبون شيئاً ما إلى الوراء. وجد باولو نفسه بعدها وحيداً، بين لهب المصباح المتأرجح والقمر الذي يختلس النظر من النافذة. وفي الخارج رجال يبتعدون، وهم يقرعون على رصيف الطريق المقفر، بالمسامير الحديديّة المثبّتة في أسفل أحذيتهم.

كان الوقت مبكّراً للذهاب إلى السرير، ومع أنّه كان يشعر بالألم في جميع أطرافه، وبأنّ رقبته قد تحطّمت من الإرهاق، كما لو أنّه حمل عليها طيلة النهار نير ثور، رغم هذا كلّه، فإنه لم يفكّر البتّة بالصعود إلى غرفته.

كانت الأمّ ما تزال في المطبخ، لكنّه لم يكن يراها. ومع ذلك فقد كان يشعر أنّها ساهرة يقظة، كما كانت في الليلة السابقة.

كما في الليلة السابقة! تهيّأ له أنّه استغرق في النوم مدّة طويلة، ثمّ استيقظ على حين غِرّة: وما كانت عودته من بيت آنييزه، وأفكار الليل، والرسالة، وصلاة القدّاس، والرحلة إلى الجبل، وتظاهرة أبناء بلدته، ما كانت كلّها إلا مجرّد حلم. أمّا الحياة الحقيقيّة فإنّها تبدأ الآن: خطوتان، عشر خطوات... يفتح الباب... يعود إليها... فتبدأ الحياة الحقيقيّة.

"لكنّها ربّما لا تنتظرني. لم تعد تنتظرني". عندها شعر بركبتيه تلينان وتنثنيان. واعترته الرهبة مرّة أخرى، لم يكن خوفاً من العودة إليها، بل خوفاً من أن تكون قد قبلت بمصيرها وبدأت تنساه.

لاحظ أنّ أشدّ ألم عذّبه في أعمق أعماق قلبه، إنّما كان هذا الألم: الألمُ من أنّه لا يعرف عنها شيئاً، ألم الصمت، ألم اختفائها عنه.

كان هذا هو الموت الحقيقيّ بالنسبة إليه: أن تنقطع هي عن محبّته.

خبّأ وجهه بين كفّي يديه، وحاول أن يراها، ثمّ بدأ يعاتبها بكلّ أمر قد تعاتبه هي عليه.

"لا يمكن لك أن تنسي وعودك يا آنييزه. فكيف، كيف يمكن لك أن تنسيها؟ عندما كنت تضغطين على معصمي بيديك القويّتين وتقولين لي: "لقد ارتبطنا ببعضنا بعضاً في الحياة وفي الموت". فهل من الممكن أنّكِ نسيتِ هذا؟ كنت تقولين: "هل تعرف.. هل تعرف...".

مرّ بإصبعه على مؤخرة عنقه، وحول رقبته، بدا له أنّه يختنق.

"إنّه الشيطان الذي أوقعني في حبالك".

وهنا فكّر بالأرنب الذي قضم مخلبه. تنفّس بعمق. نهض، وتناول المصباح، وأراد أن يتحدّى إرادته ويتحدّى نفسه، أن يقضم هو أيضاً لحمه، على أن يتخلّص ويتحرّر. قرّر أن يصعد إلى غرفته. وعندما تحرّك رأى أمّه جالسة في مكانها المعهود في المطبخ الساكن. كان بجانبها أنتيوكو، وقد استولى عليه النوم. فاقترب من الباب.

"ماذا يفعل هنا ذلك الفتى حتّى الآن؟".

تردّدت الأمّ، ثمّ التفتت لتنظر إليه. كان بودّها ألا تتكلّم، أن تخفي أنتيوكو بطرف ثوبها، كي لا يتأخّر باولو وألا يبطئ، ليسرع في الذهاب إلى غرفته. إنّها تثق به الآن كلّ الثقة، لكنّها تفكّر هي أيضاً بالشيطان وأحابيله.

لكنّ أنتيوكو كان قد استيقظ، وهو يذكر تماماً الهدف من بقائه هنا في الانتظار رغم دعوات المرأة له بالانصراف.

"أنا هنا لأنّ أمي ما زالت تنتظر زيارتك".

"لكن هل هذا وقت زيارات الآن؟". اعترضت عليه الأمّ. "هيّا، انصرف، قل لها إنّ بأولو منهك وسيأتي في الغد".

كانت تكلّم الفتى وهي تنظر إلى ابنها، ورأته وهو يحدّق بالمصباح بعينين زجاجيّتين، رغم أنّ رمشيه يخفقان مثل فراشة ليليّة ترفرف قرب الضوء.

نهض أنتيوكو وعليه علامات الأسف والحزن.

"لكن أمّي تنتظر، وتظنّ أنّ الأمر خطير".

"لو كان خطيراً لجاءت وبلّغت عنه في الحال. هيّا، انصرف".

كانت تتكلّم بلهجة حادّة، فرفع باولو عينيه اللتين عادتا واشتعلتا فجأة من جديد. لقد شعر بمخاوف أمّه من أن يعود ويخرج، فاستشاط غضباً وكآبة.

صفق المصباح ووضعه بعنف على الطاولة، ثمّ نادى على أنتيوكو.

"فلنذهب إلى أمّك".

في الممرّ التفت إليها وأضاف: "سأعود حالاً يا أمّي، اتركي الباب مفتوحاً".

أمّا هي فلم تتحرّك، لكنّها ما إن خرج اثناهما حتّى ذهبت لتختلس النظر عبر الباب الموارب. رأتهما وهما يجتازان الساحة التي أرخى القمر عليها بياض لونه، ليدخلا بعدها في الحانة التي مازالت مضاءة. عندها عادت إلى مكانها وبدأت بالانتظار، كما انتظرت في الليلة السابقة.

أدركت وسط دهشتها العارمة، أنّها لم تخف من ظهور القسّ القديم مرّة أخرى، كان ذلك حلماً، ومع هذا فإنّها لم تكن على ثقة تامّة بأنّ الشبح لن يعود من جديد ليسألها عن مصير الجوارب المرفوّة.

"أجل، لقد رفوتها"، قالت بصوت مرتفع، وهي تفكّر بما فعلته لأجل ابنها. وشعرت، بأنّها إن رجع الشبح إليها، فإنّها ستكون قادرة على مجابهته والاتّفاق معه.

لكنّ كلّ شيء كان هادئاً، وسط الصمت الذي توّجُه القمر. شاهدت عبر زجاج النافذة أشجار المرتفع مشرقةً، كما لو أنّ كلّ ورقة من أوراقها تشعّ بشرارة فضّيّة. وكانت السماء تبدو أنّها صُنعت من حليب، كما كانت روائح الشجيرات العطريّة تنفذ واخزةً إلى أرجاء البيت. كانت هي أيضاً هادئة، ولا تعرف السبب، وفكّرت أنّ ابنها باولو مازال معرّضاً لأن يرزح تحت وزر الخطيئة، لكنّها لم تشعر بالخوف إزاء الأمر. إنّها مازالت ترى جفنيه يخفقان كجفني طفل مقبل على البكاء. أخيراً ذاب قلبها، قلب الأمّ، من شدّة شفقتها عليه. "لماذا يا ربّي، لماذا؟".

لم تجرؤ على إنهاء سؤالها، رغم أنّ السؤال كان يقبع في أعماق فؤادها، كأنّه صخرة في أعماق البئر. لماذا يا ربّي لا يمكن لباولو أن يحبّ امرأة؟ بينما يستطيع الجميع أن يحبّوا، الجميع حتّى الخدم والرعاة، حتّى العميان والمحكومون في السجون، فلماذا لا يمكن لباولو، ابنها، هو وحده، لا يمكن له أن يحبّ؟

لكنّ الشعور بالواقع ما لبث أن أحاط بها من جديد. تذكّرت كلمات أنتيوكو، فشعرت بالخجل من أن تكون أقلّ حكمة من مجرّد فتى.

"كانوا هم بالذات، الكهنة الشباب، هم الذين طلبوا أن يعيشوا أحراراً عفيفين، بعيداً عن النساء".

وكان ابنها باولو قوياً، لم يكن أقلّ من أسلافه القدامى، لم يكن له أن يبكي، لا، ولا بدّ أنّ جفنيه سيثبتان، جافّين كأجفان الموتى. إنّه قويّ. "لكنّي أنا التي خرفت".

أجل، لقد بدا لها أنّها شاخت، ولقد كبرت عشرين سنة في ذلك اليوم المليء بالانفعالات. كانت كلّ ساعة من ساعاته تسبّب لها ضربة في الكلى. كانت كلّ دقيقة تنحت في روحها وتصقلها، كما ينحت الإزميلُ ويصقل كتلَ الحجارة الضخمة، هناك في كسّارة ما وراء المرتفع.

لقد أصبحت أشياء كثيرة واضحة الآن أمام عينيها، وبدت لها مختلفة عمّا كانت عليه في اليوم السابق. كانت صورة آنييزه تبرز أمامها من حين لآخر، وهي تنظر إليها بتعالٍ وتكبر، كاتمة في قلبها كلّ شعور من مشاعرها. "لكنّك أنت أيضاً قويّة، وستعرفين كيف تخفين كلّ شيء".

وأخفت النار، غطّتها ببطء واتقان، حتّى لا تتمكّن حتّى شرارة واحدة أن تطير من بين الرماد، فتعلق بشيء ما قريب. ثمّ ذهبت لتغلق الباب، فهي تعلم أنّه يصطحب معه المفاتيح على الدوام. كانت تسير بقوّة، وكأنّما لتُسمعه وقع خطواتها رغم أنّه بعيد عنها، ولتعلمه بخطواتها الواثقة عن مدى ثقتها بنفسها.

لكنّا كانت تعلم أيضاً أنّ هذه الثقة ليست في نهاية الأمر ثقة ثابتة. يا إلهي، لكن أيّ شيء هو ثابت في حياتنا؟ حتّى قواعد الجبال، حتّى أساس الكنائس، تكفي رعشة من الأرض واحدة، فتنسفها جميعها

نسفاً. لقد أصبحت واثقة الآن بابنها باولو، وواثقة أيضاً بنفسها، لكن بشيء كثير من الخوف من المجهول، والقلق على المستقبل. فانهارت على الكرسيّ في غرفتها، وهي تقول لنفسها: ربّما كان من الأفضل ترك الباب مفتوحاً.

ثمّ نهضت وبدأت في حلّ رباط مئزرها، لكنّ العقدة استعصت، فهاجت من الأمر وغضبت.

يجب عليها الآن أن تقصّ الرباط، لذلك فقد خطت خطوة لتبحث عن المقصّ في سلّة أشغالها. اضطجع في سلّة اشغالها قطّ صغير، فسخنت تحته كباكيب الخيطان، وكان المقصّ دافئاً أيضاً، فشعرت به كأنّه شيء حيّ بين أصابعها. لكنّها سرعان ما أعادته، لا، فهي ستسعى إلى فكّ العقدة. اقتربت من الضوء وسحبت العقدة إلى الأمام، ثمّ عالجتها وعالجتها حتّى تمكّنت من فكّها. تنهّدت، ثمّ بدأت تخلع ثيابها قطعة بعد قطعة وتطويها بكلّ تؤدة على الكرسيّ، ليس قبل أن تسحب المفاتيح من جيبها، وتصفّها الواحد بعد الآخر على سطح طاولة النوم، كأنّها أفراد عائلة جلسوا ليرتاحوا. هكذا علّمها سادتها من قبل، النظام ثمّ النظام، وكانت هي تطيع الأوامر القديمة.

عادت وجلست، قميصها قصير فوق ساقين تحسبهما من خشب، ثمّ تثاءبت، تثاؤب إرهاق واستسلام.

لا، فليرجع، وليقرأ على الباب المغلق ثقة أمّه المطلقة فيه. هكذا يجب التعامل معه، بالثقة المطلقة. ومع هذا فإنّها كانت تميل بأذنها لتصيخ السمع، بشكل يختلف عن الليلة السابقة، لكنّها كانت تميل بأذنها.

خلعت حذاءها وتركت النعلين يقعان، ثمّ قرّبت الفردة من الأخرى كأنهما أختان متحابّتان تريدان أن تجتمعا حتّى خلال الليل. واصلت بعدها الصلاة والتثاؤب، تثاؤب إرهاق واستسلام، بل وتوتّر أيضاً.

ماذا عساه يريد أن يقول لأمّ أنتيوكو؟ لم تكن للمرأة سمعة طيّبة، كانت مرابية، بل ويقال إنّها كانت قوّادة أيضاً. لا، وبدأت تنفخ على الشمعة، ثمّ أطفأت لهبها بأصابعها التي بلّلتها بلعابها، واعتلت بعدها السرير، لكنّها لم تتمكّن من الاستلقاء عليه.

حسبت أنّها سمعت وقع خطوات في الغرفة. هل كان هو الشبح قد عاد؟ تملّكها خوف رهيب من أن يتسلّق السرير ويستحوذ عليها، فأظلمت عيناها وتبلّدت أفكارها وتجمّد الدم في عروقها، قبل أن يجري من جديد نحو القلب، مثل حشد ثائر يجري في طرق المدينة نحو الساحة. انقضت دقائق قبل أن تستعيد رباطة جأشها، فخجلت عندها من شعورها بالخوف الذي جاءها من كلّ بدّ نتيجة شكوك غير سليمة في حقّ ابنها باولو.

لا، إنّها لا ترغب بعد اليوم أن تتقصّى شيئاً، ولا حتّى حول أقلّ أعماله شأناً. عليها أن تلزم الهدوء، أن تبقى في ظلام غرفتها الصغيرة، غرفة الخادمة. تمدّدت عندها، وتغطّت، غطّت أذنيها أيضاً، كي لا تسمع شيئاً عنه، رجع أم لم يرجع. لكنّها، في داخلها، كانت تسمع. سمعت أنّه لم يرجع، أنّ شخصاً ما أبعده عنها رغم إرادته، مثل المرء يُقاد إلى حلبه الرقص مجروراً.

لكنّها كانت واثقة منه، تثق أنّه سيعرف عاجلاً أو آجلاً أن يتحرّر ويتخلّص. كما أنّها، إذا كانت جاثمة الآن في مكانها تحت الغطاء، فإنّها لم تنم، لأنّها شعرت أنّها تلمس بيديها العقدة المتشابكة في مئزرها، وأنّها مصمّمة على فكّها.

كما بدا لها أنّ الطنين في أذنيها المكمورتين شبيهٌ بهدير الحشود في الساحة، بل وفيما أبعد من ذلك أيضاً، هدير أناس يتذمّرون، ثمّ يضحكون ويغنّون ويرقصون. كان ابنها باولو وسطهم. وكان هناك من يعزف الناي في مكان مرتفع، عزفاً حلواً لطيفاً. ربّما كانت هي الملائكة، عاليةً فوق رقصات البشر.

ما فتأت أمّ أنتيوكو تفكّر طيلة النهار في الهدف من الزيارة التي أعلن عنها القسّ، لكنّها كانت تحرص على ألا تظهر بمظهر التوّاق لزيارته. فلربّما كان يرغب في إبداء ملاحظات حول بعض المهن التي تمارسها مثل المراباة، أو لأنّها كانت تعطي الناس تمائم أثريّة معيّنة ورثتها عن عائلة زوجها، وذلك لأسباب طبّية بحتة، وإن كانت مقترنة دائماً بتناول جعالة بسيطة. أو لربّما جاءها لطلب قرضٍ منها، له أو لغيره. على كلٍّ، فما إن انصرف آخرُ زبون حتّى اقتربت من الباب، ويداها داخل جيبيها المثقلتين بالنقود النحاسيّة، لترى فيما إذا كان أنتيوكو قد عاد بصحبة القسّ. ها هما يظهران الآن عبر الساحة، لونهما أسود تحت ضياء القمر.

تصنّعت أنّها تهمّ بتنزيل غلق الباب، ونزلت في الواقع نصفه، ثمّ انحنت لتضع وتداً يوقفه. كانت رشيقة الحركات رغم ضخامة جسمها، لكنّ رأسها كان صغيراً على عكس رؤوس نساء بلدتها، ويعوّض عن صغره صدَفةٌ كبيرة صنعتها بجدائلها السوداء.

انتصبت عندما اقترب القسّ منها، وحيّته بكلّ وقار، لكنّها نظرت إلى عينيه بعينيها الصغيرتين السوداوين المعسولتين المشتعلتين. ثمّ رجته أن يتفضّل ويدخل إلى الغرفة الداخليّة. بينما كان أنتيوكو يرجوها بعينيه أن تدعوه بإصرار وإلحاف.

لكنّ القسّ أجاب ببساطة ولطف: "فلنبق هنا، فلنبق هنا"، ثمّ جلس أمام إحدى الطاولات الطويلة قبالة الحانة، والتي اسودّت من كثرة ما سُكب فوقها من نبيذ.

استسلم أنتيوكو وبقي إلى جانبه، لكنّه ظلّ يدير رأسه الرشيق هنا وهناك، ليتأكّد على الأقلّ فيما إذا كان كلّ شيء على ما يرام، وخوفاً من أن يأتي بعض الزبائن.

لم يأت منهم أحد، وكان كلّ شيء على ما يرام. كان ظلّ أمّه الضخم يغطّي القوارير المليئة بأنواع الخمر الخضراء والحمراء والصفراء المصفوفة على رفّ خلف طاولة الصندوق الصغيرة، بينما كان مصباح الزيت يلقي ضوءه الفجّ على البراميل السوداء الصغيرة، التي كانت مسنودة إلى جدار الجهة المقابلة. على كلّ لم يكن هناك إلا الطاولة التي جلس إليها القسّ، فضلاً عن طاولة أخرى منعزلة. أمّا الباب فقد علّقت في أعلاه باقةٌ من نبتة المكانس، وذلك لغرضين أوّلهما إعلام المارّة أنّ هذا هو باب حانة، وثانيهما هو اصطياد الذباب.

كان أنتيوكو ينتظر طيلة نهاره هذه الساعة، وكان يظنّ أنّ أمراً ما غامضاً سيظهر، وأنّ سرّاً سينجلي بعدها. لذلك فقد خشي أن يأتي شخص ما، أو أن تقوم أمّه بحماقة ما. كان بودّه أن تتصرّف بتواضع أشدّ، وأن تبدو ليّنة مطواعة أمام القسّ. لكنّها سرعان ما تبوّأت مقعدها وراء طاولة الصندوق، وجلست عليه مستوية استواء الملكات على عروشهنّ. يبدو أنّها تجاهلت أنّ ذلك الرجل، الجالس إلى الطاولة مثله مثل أيّ زبون بسيط من زبائن الحانة، إنّما هو قدّيس يصنع المعجزات. بل إنّها لم تظهر اعترافا بالجميل الذي أسداه إليها، عندما تمكّنت بسببه، من بيع كميّة كبيرة من النبيذ في ذلك اليوم.

لكن ها هو قد بدأ أخيراً بالكلام: "أريد أن ألتقي أيضاً بزوجك". بدأ حديثه، وأسند مرفقيه على الطاولة، وجمع مع بعضها أطراف أصابع يديه المفتوحتين، وهو ينظر بينهما. "لكنّ أنتيوكو أخبرني أنه لن يعود قبل يوم الأحد القادم". فأومأت إليه المرأة برأسها لتوافق على أقواله.

"أجل، إنّه سيعود في الأحد القادم. لكنْ بوسعي أن أرسل في طلبه"، عاد أنتيوكو واقترح بحماسة، لم يعرها أحد أيّ اهتمام.

"يتعلّق الأمر بالفتى. لقد حان الوقت لكي تفكّروا به بصورة جدّيّة. لقد أصبح الفتى كبيراً. لا بدّ من تعليمه مهنة ما، أو إذا شئتم أن يصبح كاهناً، فعليكم أن تفكّروا بعمق، بالمسؤوليّات التي ستترتّب حينها عليكم".

فتح أنتيوكو شفتيه، لكنّه التفت نحو أمّه، عندما بدأت بالكلام، وصار يستمع إليها بصمت، تشوبه ظلال استنكار ارتسمت على وجهه المضطرب.

انتهزت المرأة الفرصة لتمدح، كما هي عادتها، زوجها، ولتعتذر عن كونها تزوّجت رجلاً يكبرها بكثير سنّاً. "إنّ زوجي مارتينو يعرف ذلك يا صاحب القداسة، إنّه أشدّ الرجال إخلاصاً وتعلّقاً بضميره في هذا العالم، إنّه زوج صالح وأب صالح، وهو يعمل كما لا يعمل مخلوق آخر. هل هناك من يعمل مثله بين رجال بلدتنا؟ أخبرني يا صاحب القداسة، وأنت الذي يعرف حقّ المعرفة مقدار الجوع الذي يخيّم على بلدتنا بسبب خمول سكّانها. إذن، أقول، إذا كان أنتيوكو يريد أن يختار مهنة، فما عليه إلا أن يقتفي أثر أبيه: وعندها سيجد أفضل مهنة تناسبه. إنّ الفتى حرّ، وهو حرّ أيضاً في أن

يقرّر ألا يفعل شيئاً. لا أقول هذا للاحتيال، لأنّ بوسعه، ولله الحمد، أن يعيش عيشة هنيّة، من غير أن يضطر إلى السرقة والاحتيال. أمّا إذا أراد مهنة تختلف عن مهنة أبيه، فما عليه إلا أن يختار. إذا أراد أن يشتغل فحّاماً فليشتغل فحّاماً. وإذا أراد أن يشتغل نجّاراً فليشتغل نجّاراً، وإذا أراد أن يشتغل فلاحاً فليشتغل فلاحاً".

"أمّا أنا فأريد أن أصبح كاهناً"، قال الفتى بشفتين مرتجفتين، وعينين مفعمتين بالتصميم.

"حسناً، فلتصبح إذن كاهناً".

وبهذا بدا أنّ مصيره قد تحدّد.

ترك القسّ يديه تسقطان على الطاولة، مثل ورقتي شجر بلون أبيض، ثمّ رفع رأسه، وعاد فحناه.

شعر على حين غِرّة بأنّه من المضحك أن ينشغل هو بأمور الآخرين. وكيف له أن يحلّ مشكلة مستقبل أنتيوكو، إذا كان لا يستطيع أن يحلّ حتّى مشكلة مستقبله هو بالذات؟.

كان الفتى قابعاً هناك، أمامه، متوتّراً ومشتعلاً مثل حديد حامٍ مشتعل، ينتظر ضربة المطرقة ليتّخذ شكله، فكلّ كلمة يمكن لها أن تفيده، وكلّ كلمة يمكن لها أن تضرّه.

نظر إليه، وكان في نظرته بعض الحسد، بل إنّه أيّد في أعماق ضميره تلك الأمّ التي تترك لابنها حرّية الانقياد وراء غريزته.

"إنّ الغريزة لا تخذلنا أبداً"، قال بصوت خافت مسترسلاً بأفكاره. "لكن قل لي الآن يا أنتيوكو، وأمام أمّك، لماذا تريد أن تصبح كاهناً؟ فهذه ليست مهنة، إنّها ليست كأن تشتغل فحّاماً

أو نجّاراً. قد يبدو لك الأمر اليوم سهلاً، ومريحاً، لكنّك سترى أنّه أمر صعب للغاية. خاصّة وأنّ مسرّات ولذائذ الرجال الآخرين ممنوعة علينا. وإذا قرّرنا أن نخدم الله عن حقّ، فحياتنا ستكون مليئة بالتضحيات".

"أعرف ذلك"، أجاب الفتى ببساطة، "وأنا أريد أن أخدم الله".

ثمّ نظر إلى أمّه، مع أنّه كان يشعر بالخجل من إظهار حماسته أمامها. لكنّها هي كانت متربّعة على مقعدها مطمئنّة باردة كما تكون عندما تخدم زبائنها، لذلك فقد تابع:

"سيكون كلّ من أبي وأميّ مسرورين إذا أصبحتُ كاهناً، فلماذا لا أصبح كاهناً؟ وإذا ظهرتُ اليوم أنّي في بعض الأحيان قليل الانتباه، فلأنّي ما زلت فتىً صبيّاً. لكنّي سأكون من الآن فصاعداً أشدّ انتباهاً وجدّيّة".

"لا أتكلّم عن هذا يا أنتيوكو، إنّك شديد الانتباه والجدّيّة، بل أكثر ممّا ينبغي. لأنّ الفتية في عمرك يجب أن يكونوا طليقين، مرحين، عليهم أن يدرسوا ويحضّروا أنفسهم للحياة، أجل، لكنّه عليهم أن يعيشوا صباهم".

"أو لستُ فتىً أنا؟ بلى، إنّي فتىً وإنّي ألعب وألهو، لكنّك لا تراني عندما أفعل. ثمّ لماذا يجب أن ألعب وألهو عندما لا أرغب في ذلك؟ إنّي أتسلّى بطرق مختلفة، فلشدّ ما يعجبني مثلاً قرعُ الناقوس. يتهيّأ لي وقتها أنّي عصفور حطّ على برج الكنيسة. أوَلمْ أتسلّى اليوم؟ لقد شُغفت بحمل الصندوق الصغير، وأُعجبت بتسلّق الجبل، والسير بين الصخور. وقد رأيتَ كيف أنّي وصلت قبلك، مع أنّك كنت على الحصان. سُررت أيضاً برحلة العودة"، ثمّ أضاف وهو يغلق عينيه:

"وقد كنت مسروراً هذا اليوم، عندما تمكّنتَ من طرد الشياطين من جسد نينا مازيّا"، فابتسم القسّ رغماً عنه.

"هل تعني بالفعل ما تقول؟". سأله بصوت منخفض، وسرعان ما رأى عيني الفتى تنفتحان متألّقتين بالدهشة ومفعمتين بالإيمان، ممّا اضطره لأن يخفض نظره ليخفي الظلال القاتمة التي تسيطر على نفسه.

"المسألة...المسألة هي أنّ المرء يفكّر بطريقة معيّنة، عندما يكون فتىً يافعاً" ثمّ استأنف حديثه بشيء من الاضطراب: "لكنّ الأمور ما تلبث أن تتغيّر بتقدّم العمر. لذلك لابدّ من موازنتها قبل اعتمادها، ذلك أدنى ألا نندم فيما بعد".

"لا، لن أندم، أؤكّد لك! وهل ندمت أنت؟ لا، طبعاً، كذلك فإنّي لن أندم أنا أيضاً".

رفع باولو عينيه، وتهيّأ له مرّة أخرى أنّه يحمل بين أضلاعه نفس الطفل الصغير، نفساً من شمعٍ، يستطيع أن يغيّر شكلها بلمسات قليلة من يديه. فخشي من جديد، خاف ولم يحر جواباً.

كانت المرأة تصغي بهدوء إلى الحديث من وراء طاولتها، لكنّ الكلمات بدأت تثير في نفسها شيئاً من الاستياء. فتحت الدرج الذي أمامها والذي يحتوي على النقود، وعلى الخواتم والعقيق وقطع الجواهر التي تضعها النساء عندها رهناً، مقابل قروض صغيرة تقدّمها لهنّ. وهنا ثارت أفكار خبيثة في أبعد ثنايا خاطرها، واشدّها سواداً وظلمة. كانت شبيهة بهذه المجوهرات الحزينة المركونة في صدر هذا الدرج.

"لابدّ أنّ القسّ يخشى من أن يتمكّن أنتيوكو سريعاً من اغتصاب الكنيسة منه"، هكذا فكّرت، "أو أنّه في حاجة لبعض النقود وهو يعمل قبلها على التنفيس عن نكد نفسه. لابدّ أنّه سيطلب قرضاً الآن".

أغلقت الدرج بهدوء، واستعادت هيئة الطمأنينة. كانت معتادة على التزام الصمت وعدم المشاركة في مناقشات الزبائن حتّى عندما يسألونها رأيها. خاصّة وهم يلعبون الورق. وهكذا فإنّها تركت ابنها الصغير أنتيوكو يجابه الخصم وحده.

"وكيف لا نصدّق؟ ألم تكن نينا مازيّا مسكونة بالشياطين؟ أنا شخصيّاً سمعت الشيطان يرتعش داخل جسدها، كما لو أنّه ذئب مسجون في قفص. ثمّ جاءت كلمات الإنجيل التي لفظتَها، فكانت كافية لتخليصها منه". وهنا أقرّ القسّ وقال: "حقّاً، بوسع كلام الله أن يفعل كلّ شيء". ثمّ نهض على حين غرّة.

هل يريد أن ينصرف؟ نظر إليه أنتيوكو وكأنّه أصيب بشيء من الفزع.

ثمّ تساءل: "هل تريد أن تذهب، بهذه السرعة؟".

هل كانت هذه هي زيارته التي طال انتظارها؟ جرى نحو طاولة الصندوق وأشار إلى أمّه بإشارة يائسة، فالتفتت هذه في الحال لتتناول زجاجة من الزجاجات الموضوعة على الرفّ. لقد شعرت هي أيضاً بخيبة الأمل، لأنّها كانت تأمل أن تقدّم قرضاً للقسّ، ولو بفائدة قليلة، فيصبح عملها الربويّ بشكل ما عملاً شرعيّاً أمام الله. لكنّه جاء إذن لمجرّد أن يقول لأنتيوكو إنّ مهنة القسّ تختلف عن مهنة النجّار، وإنّه لا بدّ من تشريفها في كلّ الأحوال.

"لا يمكن أن تنصرف أيّها السيّد القسّ على هذه الطريقة! إقبل منّا بعض الضيافة، هذا نبيذ معتّق من القرن الماضي". وكان أنتيوكو قد جاء بصينيّة عليها قدح من الكريستال.

"القليل فقط، قليلاً منه".

بدأت المرأة تصبّ وهي منحنية على سطح الطاولة، وحريصة على ألا تهدر قطرة واحدة. رفع أنتيوكو القدح وبدأت رائحة النبيذ تفوح منه، كأنّها رائحة وردة قاتمة اللون. طلبت من الفتى أن يتذوّقه قبل أن تقرّب القدح من شفتيها.

فقال: "فلنشرب إذن نخب قسّ آآر القادم".

استند أنتيوكو إلى طاولة الصندوق لأنّ ركبتيه بدأتا تنثنيان. كانت هذه أسعد لحظات حياته.

لكنّه في غمرة فرحته، وبينما كانت أمّه تستدير لتعيد الزجاجة الثمينة إلى مكانها على الرفّ، لم ينتبه إلى أنّ وجه القسّ قد شحب بعد أن ثبّت عينيه وراء الباب، كأنّه شاهد شبحاً في خارج المكان.

كان هناك بالفعل جسم أسود اللون يسير بصمت عبر الساحة، وصل إلى باب الحانة، ونظر في داخلها بعينين سوداوين محملقتين. ودخل لاهثاً.

كانت تلك واحدة من خدم آنيزه.

انسحب القسّ بالغريزة إلى آخر الحانة، وهو يحاول التخفّي، ثمّ توجّه إلى الأمام كأنّه دفع إلى هناك بضربة على كتفيه، تهيّأ له أنّه يدور على نفسه كالمغزل. توقّف عندما تذكّر أنّه ليس وحيداً في المكان، وأنّ الآخرين سيلاحظون حركاته.

لم يرغب بسماع ما تقوله الخادمةُ للمرأة، التي بدأت تصغي من وراء طاولتها، لأنّ رغباته انحصرت في رغبته بالهرب والخلاص. انقطع قلبه عن الخفقان، وصعد كلّ دمه إلى رأسه وبدأ يزمجر داخل أذنيه. ومع هذا فإن كلمات الخادمة بدأت تقرع في أعماق نفسه.

"لقد وقعت، ونزفت دماً كثيراً من أنفها، كان كثيراً حتّى ظننّا أنّ شيئاً ما قد تحطّم في داخل رأسها. ومازال الدم ينزف. لا يمكن إلا لمفاتيح كنيسة القدّيسة مريم المصريّة أن توقف هذا النزيف، فأعطني إيّاها".

كان أنتيوكو يسمع الحديث، وهو مازال يحمل الصينيّة وعليها قدح النبيذ. لذلك فقد أسرع ليتناول مفاتيح الكنيسة القديمة المحطّمة، وكان لهذه المفاتيح بالفعل قوّة إيقاف تدفّق الدم إذا وضعت خلف كتف من يعاني من النزيف.

"لابدّ أنّها تمثيليّة"، فكّر باولو في نفسه. "هذا ليس صحيحاً على الإطلاق. إنّها هي من أرسل الخادمة لتتجسّس عليّ ولتحاول أن تجذبني إلى بيتها، بل ربّما كانتا على تفاهم مع هذه القوّادة هنا".

ومع هذا، فقد كان هياج قلبه يزداد، ويشتدّ في أعماقه ليهزّ جميع وجوده. لا، إنّ الخادمة لا تكذب، فآنيزه امرأةٌ معتدّةٌ بنفسها، ولا يمكن لها أن تسرّ لأحد بأمورها، وخاصّة لخادماتها. لا بدّ أنّ آنيزه مريضة بالفعل. وبدا له أنّه يراها بوجهها الجميل الدامي. وأنّه هو بالذات من ضربها: "ظننّا أنّ شيئاً ما قد تحطّم في داخل رأسها".

شاهد عيني المرأة المائلتين ترتفعان بسرعة نحوه من أمام الطاولة، كانت فيهما نظرة مفاجأة ودهشة من عدم اهتمامه.

"وكيف حدث الأمر؟". سأل الخادمة عندها، لكن بهدوء وصوت منخفض، وكأنّه يريد أن يخفي عن نفسه هذا الاهتمام والحرص.

التفتت الخادمة نحوه بكلّ جسمها. وبرز وجهها أمامه قاتماً قاسي الملامح وحادّاً، كأنّه صخرة، وخشي أن يصطدم بها.

"لم أكن في البيت عندما وقعت. لأنها وقعت هذا الصباح، عندما كنت على النبع. عندما عدت رأيت أنها كانت مصابة، كانت قدمها قد زلّت على درج الباب وبدأ الدم ينزف من أنفها. بل بدا كأنّها أصيبت أيضاً بالتشنّج والاختلاج. تركتها الآن وهي باردة، متصلّبة، والدم يتدفّق منها. وإنّي قلقة عليها". كررت وهي تلفّ في مئزرها المفاتيح التي أعطاها أنتيوكو لها. "ليس في البيت إلا نحن النساء".

انصرفت، وهي ما فتئت تحدّق فيه، وكأنّها تريد أن تجذبه خلفها بقوّة نظراتها.

قالت المرأة الجالسة خلف الطاولة بصوتها البارد المعهود:

"لماذا لا تذهب وتراها، أيّها السيّد القسّ؟"

أمّا هو فكان يعصر يديه من غير أن يعي ما يفعل.

"لا أدري...في مثل هذه الساعة...".

"تعال، تعال! ستكون سيّدتي الصغيرة سعيدة، وسيشجّعها مجيئك".

"إنّه الشيطان يتحدّث بفمها"، فكّر القسّ بينما كان يتبعها عن غير وعي منه. كان قد أمسك بأنتيوكو من كتفه، وسَحَبَه أمامه متكئاً عليه.

سار الفتى معه كأنّه لوح خشب يركب الأمواج، وهكذا ظهرا عندما دخلا إلى الساحة، وبدآ يتسلّقان الطريق نحو الكنيسة. كانت الخادمة تتقدّمهما وتلتفت من حين لآخر لتنظر إلى القمر ببياض عينيها البرّاق. كانت شديدة السواد، وكان وجهها قاتماً كأنّه قناع داكن اللون، لقد كان فيها شيء ما شيطانيّ بالفعل. لذلك فإنّ باولو كان يتبعها وفي نفسه شعور غامض بالخوف، كان يتبعها وهو يسير متكأ على كتف أنتيوكو، فشعر كأنّه طوبيا الأعمى. لكنّه عندما اقترب من

باب بيته، ورأى أنّ الفتى حاول دفعه دون جدوى، علم أنّ أمّه قد أغلقت الباب. توقّف عندها بغتة وانفصل عن الفتى.

"لقد أغلقت أمّي الباب لأنّها كانت تعرف أنّي لن أحافظ على وعدي". هكذا فكّر في قرارة نفسه. ثم قال للفتى: "عد إلى بيتك، هيّا، انصرف".

توقّفت الخادمة، ثمّ عادت وسارت، ثمّ عادت وتوقّفت. رأت أنّ الفتى يتوجّه نحو بيته، وأنّ القسّ يضع المفتاح في قفل بابه. عندها تراجعت وعادت نحوه.

"لن أجيئ" قال وهو يلتفت نحوها بنوع من التهديد، ونظر إليها في وجهها، وكأنّه يريد أن يتعرّف إليها عبر قناعها. "إذا رأيتِ أنّ هناك حاجة ماسّة، هل تفهمين، أقول حاجة ماسّة، فيمكن لك أن تعودي لتستدعيني".

انصرفت عندها من غير أن تتفوّه بكلمة واحدة، أمّا هو فبقي واقفاً على بابه، ويده على المفتاح وكأنّه لا يمكن أن يدور. لكنّه كان هو الذي لا يتمكن، لا يتمكن من الدخول. بل إنّه شعر ولو للحظة واحدة أنّه سيبقى إلى الأبد على هذه الحال، أي أمام باب مغلق، مع أنّه يملك مفتاحه.

عاد أنتيوكو إلى البيت، فأغلقت أمّه الباب، وذهب هو ليغسل الكؤوس ويرتّبها، فغسل أوّل ما غسل بالماء النظيف القدح الذي شرب هو فيه. جفّفه بكلّ عناية وأدخل قطعة قماش بيضاء ودوّرها بإبهامه في داخله، ثمّ نظر إليه عبر ضوء الفانوس بعين واحدة، بدا له كأنّه قدّ من الماس. خبّأه عندها في الخزانة بكثير من الاحترام، وكأنّه قدح من أقداح القداديس.

كان باولو قد دخل إلى بيته أيضاً، وبدأ يتلمّس طريقه صعوداً على الدرج المظلم. وهنا عادت إلى ذهنه ذكريات مشوشّة عن صعوده، تلمّساً وزحفاً، وهو طفل صغير، على درج لا يذكر موقعه على وجه الدقّة.

شعر، كما شعر حينها، بوجود خطر لا يمكن تجنّبه إلا بكثير من الانتباه. وصل إلى ردهة الوسط. ثمّ وصل إلى بابه. لقد أصبح آمناً. لكنّه ما لبث أن تردّد في فتح باب غرفته، ثمّ التفت بغتة ونقر برأس سبّابته نقرة خفيفة على باب غرفة أمّه، ولم ينتظر جواباً بل فتح الباب ودخل.

"هذا أنا" قال بخشونة، "لا تشعلي الضوء، عليّ أن أقول لك شيئاً".

سمعها وهي تتحرّك في سريرها، وسمع صرير القشّ في الفراش. لكنّه لم يرها، بل لم يكن يرغب في رؤيتها. أراد فقط أن تتحدّث روحه مع روحها في الظلام، وكأنّهما انتقلتا إلى العالم الآخر.

"هذا أنت؟ كنت أحلم"، قالت بصوت يغلب عليه النعاس رغم ما فيه من خوف. ".. رأيت حفلاً راقصاً... وشخصاً يعزف على العود".

"أمّي" استأنف من غير أن يلتفت إلى أقوالها، "تلك المرأة، أجل، آنييزه، إنّها مريضة. مريضة منذ الصباح، لقد وقعت. يبدو أنّ شيئاً قد تحطّم داخل رأسها. الدم ينزف من أنفها".

"ماذا تقول يا باولو! هل هناك خطر عليها".

كان في صوتها قلق ظاهر، وفيه أيضاً تشكيك وعدم تصديق. استأنف هو حديثه مقلّداً بدوره صوت الخادمة اللاهث: "حدث الأمر هذا الصباح، بعد الرسالة. ثمّ اعتراها الشحوب خلال النهار، وامتنعت عن تناول الطعام، ثمّ عاودها المرض هذا المساء، وهي تعاني الآن من التشنّج".

شعر أنّه يبالغ، فتوقّف عن الكلام. التزمت الأمّ الصمت. وانتشر غموض الموت للحظة في ذلك الظلام، وخلال ذلك الصمت. كأنّهما عدوّان يبحثان عن بعضهما في ظلمة القبر من غير أن يتمكّنا من الالتقاء. ثمّ عاد قشّ الفراش ليصدر صوت الصرير، لا بدّ أنّ الأمّ قد استوت على السرير، لأنّ صوتها الواضح بدا كأنّه يصدر من الأعلى.

"ومن أخبرك يا باولو بكلّ هذه القصّة، يمكن ألا يكون الأمر صحيحاً".

شعر مرّة أخرى أنّها تتكلّم بمثل ما يختلج في أعماق نفسه. لكنّه أجاب في الحال:

"لكنّه يمكن أن يكون صحيحاً. وليس هذا موضوعنا. فالأمر أنّي أخشى أن ترتكب بعض الجنون. إنّها وحيدة، في يد الخادمات. من الضروريّ أن أراها".

"باولو!".

"ذلك ضروري" كرّر قوله وكأنّه يصرخ، لكنّه أراد أن يقنع نفسه أكثر من أن يقنعها.

"باولو، لقد قطعتَ عهداً".

"لقد قطعت عهداً، ولهذا بالضبط جئت لأخبرك. أكرّر أنّه من الضروريّ أن أذهب. هذا ما يمليه عليّ ضميري".

"أخبرني يا باولو، هل أنت متأكّد أنّك رأيت الخادمة؟ لا تنسى أنّ البلاء امتحانٌ، ومزاحٌ من النوع الثقيل، وأنّ الشيطان يتنكّر في أثواب مختلفة". لكنّه لم يكن يفهم كما يجب.

"هل تظنّين أنّي أكذب؟ لقد رأيت الخادمة".

"اسمع، لقد رأيت أنا أيضاً القسّ القديم خلال الليلة الفائتة. بل تهيّأ لي قبل قليل فقط، أنّي أسمع خطاه... لقد جلس ليلة أمس"، استأنفت بصوت منخفض، "جلس إلى جانبي، أمام المدفأة. أؤكّد لك أنّي رأيته. كانت ذقنه غير حليقة، ولا يوجد في فمه إلا أسنان قليلة، سوداء، خربة بسبب كثرة التدخين. كان يرتدي جوربين مثقوبين. وقد قال لي: "أنا حيّ، وإنّي موجود هنا، وسأعمل على طردك سريعاً أنت وابنك من هذه الكنيسة". قال لي أيضاً إنّه عليّ أن أعلّمك مهنة أبيك، إذا أردتُ ألا تقع أنت في حبال الخطيئة. لقد أثار الاضطراب في نفسي، يا باولو. حتّى إنّي لا أعرف فيما إذا كان ما فعله خيراً أو غير ذلك. لكنّي على اقتناع تامّ أنّه كان هو الشيطان بالذات، كان هو الذي جلس إلى جانبي ليلة أمس، إنّها روح شرّيرة. لذلك فإنّ الخادمة التي رأيتها يمكن أن تكون شكلاً آخر من اشكال بلاء الغواية وتسويل الشياطين".

ابتسم هو، في الظلام. ومع هذا فما فتئ يتخيّل خيال تلك الخادمة وهي تجري عبر الحقل، فغمره رغماً عنه شعور خوف وفزع.

"هل ستكون متأكّداً إذا ذهبت إلى هناك"، استأنف صوت الأمّ القول: " فهل ستكون على ثقة من أنّك لن تسقط ثانية؟ وإذا كنت متأكّداً من أنّك رأيت الخادمة في الواقع، وأنّ تلك المرأة مريضة بالفعل، فهل أنت على ثقة من أنّك لن تسقط ثانية؟".

لكنّها ما لبثت أن سكتت. لأنّها تخيّلت أنّها تراه عبر الظلام وقد بهت لونه وامتقع وجهه. فشعرت بالشفقة عليه. فلماذا تمنعه من العودة إلى المرأة؟ وماذا لو ماتت هذه من شدّة الألم؟ خاصّة وأنّه يموت هو بالذات من شدّة الألم؟ وهنا شعرت بالشكوك المؤلمة نفسها التي شعر هو بها عندما كان يفكّر بمصير أنتيوكو.

"يا إلهي"، تنهّدت، فتذكّرت أنّه سبق لها وأن عهدت بنفسها إلى ربّها وتوكّلت عليه. لأنّه هو وحده القادر على حلّ مشاكلنا. وهنا خفق قلبها راحةً وطمأنينة. كما لو أنّها تمكّنت من حلّ مشاكلها بنفسها. لكن، أليس توكّلها على الله حلّ في حدّ ذاته لتلك المشاكل؟

عادت واستسلمت لسريرها. لكن من غير أن تتمدّد عليه. لذلك فقد عاد صوتها على مستوى صوت ابنها: "إذا كان ضميرك يجبرك على الذهاب، فلماذا لم تذهب في الحال، من غير أن تأتي إلى البيت؟".

"لأنّي وعدتك. وكنت قد هدّدتِ بتركي إن أنا عدت إلى ذلك البيت. لقد أقسمت..."، قال بصوت حزين.

كان في سبيله لأن يصرخ: "أمّي، أجبريني على أن أفي بعهدي". لكنّه لم يستطع. خاصّة وأنّها أضافت قائلة:

"اذهب إذن، افعل ما يمليه عليك ضميرك".

عندها أجاب: "لا تقلقي!". واقترب حتّى لامس السرير، وبقي هناك للحظات بلا حراك. فعاد الصمت وأطبق على كلّ شيء.

عبَر مخيّلته مشهدٌ غامض، مشوّش، فحسِب أنّه واقف أمام مذبح الكنيسة، وأمّه تقف فوق المذبح، مثل معبود محفوف بالأسرار. ذكّرته الرؤية بصباه في المعهد، عندما كانوا يجبرونه على تقبيل يدها بعد الاعتراف. فشعر بالاشمئزاز ذاته، وبالإثارة ذاتها، تفوران في قرارة نفسه. ظنّ أنّه لو كان وحيداً، بدونها، لعاد إلى آنييزه في الحال. كان مرهقاً، بعد يوم مليء بالقتال بين كرّ وفرّ. لكنّ أمّه لجمته وأوقفته، ولم يكن يعرف فيما إذا كان ممتنّاً لها أم لا.

"لا تقلقي!". لكنّه كان يتمنّى لو أنّها تكلّمت، وكان في الوقت نفسه يخشى أن تتكلّم، أو أن تشعل الفانوس فتكتشف ما في عينيه، وتقرأ كلّ أفكاره، لأنّها لا بدّ أن تجبره عندها على عدم الذهاب.

لكنّها بقيت على ما هي عليه، صامتة. وعندما سمع صرير القشّ في الفراش عرف أنّها قد تمدّدت.

فذهب.

رأى أنّه، بعد كلّ شيء، لم يكن جبانا: فهو لم يذهب عن غير وعي منه، أو بدافع العاطفة، بل لأنّه شعر في أعماق ضميره أنّ هنالك خطراً لا بدّ من تفاديه، وأنّ درء ذلك الخطر كان من مسؤوليّته.

على السواد المفضّض الذي يكسو أعشاب المرج، رأى من جديد شبح الخادمة، وهي تلتفت لتنظر إليه بعينين برّاقتين وتقول له: "ستشعر سيّدتي بالشجاعة إذا جئت لتزورها".

بدا له النهار الطويل الذي قضاه في تنقّلٍ كالهروب، مجرّد عمل جبان سخيفٍ مضحك. لأنّ هذا هو الواجب الحقيقيّ، أن يذهب إليها، أن يشجّعها. وهنا شعر أنّه أصبح خفيف الحركة، بل كاد أن يكون سعيداً، وهو يجتاز المرج الغضّ، الفضّيّ تحت ضوء القمر. شعر كما لو أنّه فراشة ليليّة ضخمة تجذبها الأضواء. وهكذا خلط بين سعادته بلقيا آنييزه بعد دقائق قليلة، وبين سعادة ذهابه لإنقاذها.

تشبّعت نفسه بحلاوة أعشاب المرج، وابيضّت برقّة ضياء القمر، تغطّت بقطرات من الندى تخلّلت ثيابه، ثياب الموت السوداء.

آنييزه، تلك السيّدة الصغيرة! أجل، كانت صغيرة، واهنة ضعيفة مثل طفلة صغيرة. كانت وحيدة، بلا أب، بلا أمّ، تعيش ضمن متاهة من الحجارة، ضمن بيتها، ذلك البيت المظلم.

أمّا هو فقد استغلّها، قبض عليها ووضعها في يده، كما يُقبض على الطير من عشّه، ثمّ ضغط عليها حتّى عصر دمها الحيّ من جسمها.

حثّ خطاه. لا، لم يكن جباناً. لكنّه عندما تعثّر على الدرجة الأولى من الدرج تحت الباب، حسِب أنّ أحجار عتبتها تصدّه. ثمّ صعد، صعد بكلّ تؤدة، رفع مطرقة الباب الباردة وتركها تهوي بحياء.

شعر بشيء من الإهانة لأنّهم تأخروا في فتح الباب، لكنّه لن يطرق الباب ثانية، ولا مقابل أيّ شيء في العالم.

في النهاية رأى القمريّة الزجاجيّة تضيء فوق الباب، وجاءت الخادمة السوداء لتفتحه، وتُدخله في الحال إلى الغرفة التي كان يعرفها حقّ المعرفة. حدث كلّ الأمر كما كان يحدث خلال الليالي السابقة، عندما كانت آنييزه تُدخله في الخفاء من باب البستان. وكان باب البستان موارباً فكانت تدخل من الشقّ المفتوح روائح شجيرات بلّلها ضياء القمر.

كانت رؤوس الغزلان والوعول المحنّطة مصفوفة على الجدران المضاءة بلهب المصباح الثابت، بدا له أنّها تطلّ بعيونها السوداء الزجاجيّة البرّاقة، لتتجسّس وتكتشف ما الذي يدور في الغرفة. لم يكن من المعتاد أن يكون الباب المؤدّي إلى الغرف الداخليّة مفتوحاً على مصراعيه. كانت الخادمة قد دخلت منه، وسمع نقر خطاها على الأرضيّة الخشبيّة. ساد بعدها الصمت، ثمّ صُفع بابٌ بعنف، كأنّما دفعته ريح قويّة. تماوجت أرضيّة الغرفة على وقع الصوت وبدا كما لو أنّ البيت يرتجّ كلّه. بعد ذلك ألمّ به الحزن عندما رأى وجه آنييزه يبرز شاحباً من عتمة الغرف المظلمة، كانت تتدلّى عليه خصلات شعرها الأشعث الأسود، بدا كأنّه وجه إنسان غريق.

لكنّ شخصها الصغير الأسود انتقل بعد ذلك مباشرة إلى ضوء الغرفة، فتنفّس الصعداء وشعر بالارتياح.

أغلقت الباب وراءها واستندت إليه بكتفيها، خافضة الرأس، فبدت كأنّها ستنزلق على الأرض وتقع.

كان يقف أمامها على رؤوس أصابعه، مدّ يديه نحوها، لكنّه لم يجرؤ على لمسها.

"كيف الحال؟"، سألها بصوت منخفض، كما كان يفعل خلال اللقاءات الماضية. وبما أنّها لم تجبه، بل بقيت ترتجف بكلّ جسدها، وهي تستند بيديها إلى الباب لتتمالك نفسها، فقد أضاف بعد برهة من الصمت الحزين: "آنييزه، يجب أن يتحلّى الإنسان بالشجاعة".

شعر أنّ هناك في صوته نبرة رياء وزيف، تشبه تلك التي شابت صوته وهو يقرأ الإنجيل على الفتاة المسكونة بالشيطان. فخفض بصره، بينما رفعت هي عينين مازالتا شاردتين رغم ما فيهما من ازدراء ممزوج بالفرحة.

"لماذا جئت إذن؟".

"أخبروني أنّك مريضة".

انتصبت فخورة، بكبرياء، ونزعت عن وجهها خمارَ خصلِ الشعر.

"أنا في صحّة جيّدة، ولم أرسل أحداً وراءك".

"أعرف ذلك. ومع هذا فقد جئت. ليس هناك من سبب يمنع مجيئي. وإنّي سعيد لأنّ خادمتك بالغت، وأنّك في صحّة جيّدة".

"أبداً"، أصرّت وكرّرت أقوالها وهي تقاطعه: "أنا لم أستدعك، وما كان عليك أن تأتي. لكن بما أنّك أصبحت هنا... بما أنّك هنا، أريد أن أسألك لماذا فعلت فعلتك. لماذا؟ لماذا؟".

كانت آهاتها الحادّة تقطّع كلماتها، ثمّ عادت وانحنت بينما حاولت أن تبحث بيديها عن مسند لها. شعر بالخوف، وندم على مجيئه. أخذ بيدها وقادها نحو المقعد الذي كانا يجلسان عليه في الليالي الماضية. وضعها في الزاوية التي حفرت فيها نساء عائلتها نوعاً من الكوّة بسبب ثقلهنّ عليها. ثمّ جلس إلى جانبها، لكنّه ترك يدها.

كان يخشى أن يلمسها، إنّها كتمثال كسره ثمّ جمّع شظاياه، فانتصب سليماً في الشكل، لكنّه يبقى عرضة للتناثر في شظايا متناثرة عند أوّل صدمة. لهذا كان يخشى من لمسها، بل فكّر: "هكذا أفضل. لقد نجوتُ". لكنّه كان يشعر أنّه قد يضيع مرّة ثانية وبين لحظة وأخرى، وأنّه لهذا كان يخشى من لمسها.

عندما أمعن النظر فيها على ضوء الفانوس المباشر، رآها مختلفة عن العادة، ففمها قد امتطّ، وجلد الشفتين أصبح ذا لون ورديّ مائل إلى الرماديّ، يذكّر ببتلات وردة ذابلة. كما استطال وجهها البيضويّ، ونتأت عظام الوجنتين تحت هالتين زرقاوين. في يوم واحد زاد الألمُ عمرَها بمقدار عشرين سنة. لكنّ شيئاً ما طفوليّاً ما زال يظهر في تعابير فمها المرتعش فوق أسنانها، المطبقة لتكبت البكاء، وكذلك في يديها الصغيرتين، وكانت إحداهما تجذب يده وهي ملقاة بآلامها على قماش المقعد القاتم. شعر بالغضب لأنّه لا يتمكّن من الإمساك بها، الإمساك بتلك اليد الصغيرة الحزينة، ووصل سلسلة حياتهما التي انقطعت.

تذكّر الكلمات التي قالها للمسيح الذي أصابه الشيطان بمسّ: "ما لي ولك؟".

استأنف بعدها الحديث وهو يضغط يديه بعضهما بعضاً كما لو ليمنعهما من الإمساك بيدها. لكنّه ما فتئ يجد نبرة الزيف خلال كلماته. عرف أنّه يكذب، تماماً كما حدث ذلك الصباح في مصلّى الكنيسة عندما كان يقرأ الإنجيل، وعندما قدّم القربان للصيّاد العجوز.

"اسمعيني يا آنيزه. لقد كنّا مساء الأمس على حافّة الهاوية، لقد تركَنا اللهُ لأنفسنا، ونحن تركنا أنفسنا تهوي نحو القاع. لكنّ الله عاد الآن وأخذ بيدنا ليهدينا. يجب أن نبقى في الأعلى يا آنيزه. آنيزه، كرّر اسمها وهو يركّز على لفظه، "وهل تظنّين أنّي لا أعاني وأتألّم؟ لقد بدا لي أنّي دفنت حيّاً، وأنّ عذابي سيتواصل على مدى الأبد. لكنّ ما حدث كان ضرورياً، ضروريّاً لصالحك ومن أجل خلاصك. اسمعيني يا آنيزه، كوني قويّة. من أجل الحبّ الذي جمع بيننا، من أجل الخير الذي يدبّره الله لنا بتعريضنا لهذه التجربة. يجب أن تنسيني، وستشفين، ما زلت صبيّة فتيّة، وما زالت الحياة أمامك. عندما تذكريني سيبدو لك أنّك رأيت حلماً بشعاً، أنّك تهت في الوادي والتقيت فيه بكائن شرّير أراد أن يسيء إليك، لكنّ الله أنقذك لأنّك تستحقّين ذلك. قد يظهر لك كلّ شيء أسود الآن، لكن سترين بعد قليل من الوقت أنّ كلّ شيء سيصبح واضحاً جليّاً، وستعرفين مقدار الخير الذي أصنعه الآن لك رغم بعض الألم المؤقّت الذي أسبّبه لك، ذلك كما يجري مع مرضى يجب معاملتهم بقسوة...".

لم يكمل حديثه، بعد أن استولى عليه شعور بالتجمّد. أمّا آنيزه فقد استعادت نشاطها، فانتصبت متصلّبة في زاويتها، وبدأت تحدّق فيه بعينين بللوريتين شبيهتين بعيون الوعول على الجدران. ذكّرته عيناها بعيون النسوة في الكنيسة عندما كان يلقي عظته.

ظهر أنّ آنيزه كانت تنتظر أن يتابع حديثه. وقد كانت تبدي صبراً ووداعة تجاهه، لكنْ زائلين من كلّ بدّ، عند أوّل صدمة. وفي الواقع فإنّه لم يتابع الحديث، لذلك فقد قالت بصوت منخفض، وهي تهزّ رأسها في إشارة استنكار: "لا، لا، ليست هذه هي الحقيقة".

مال عندها نحوها بوجه يملأه القلق.

"ماهي الحقيقة إذن؟".

"لماذا لم تتحدّث بهذه الطريقة مساء الأمس؟ وفي الأمسيات السابقة؟ لماذا كانت الحقيقة وقتها مختلفة؟ لقد كشف أمرك شخص ما، ربّما كانت أمّك بالذات. لذلك فإنّك تخاف الآن من العالم. إنّه ليس الخوف من الله الذي يدفعك لأن تهجرني".

شعر برغبة في الصراخ، في تقريعها، فأمسك بيدها ولوى بعض الشيء معصمها الرقيق، كما لو أنّه يريد ليّ، بل قصم كلماتها. لكنّه تراجع إلى الوراء ثمّ نهض.

"وليكن هذا! فهل يبدو لك هذا أمراً غير ذي بال؟ أجل، لقد لاحظت أمّي كلّ شيء، ثمّ كلّمتني بالكلام الذي يمليه عليّ ضميري نفسه. وأنت؟ أليس لك ضمير؟ فهل يبدو لك أمراً عادلاً أن نسيء إلى من يعيش بنا ومن أجلنا؟ كنت تريدين أن نهرب سويّة، وأن نعيش مع بعضنا. كان هذا عادلاً، لو كنّا لا نستطيع الاستغناء عن محبّتنا لبعضنا. لكن بما أنّ هناك مخلوقات أخرى يتحطّمون بسبب هروبنا وخطيئتنا، فمن الضروريّ إذن أن نضحّي من أجلهم".

لكنّه بدا أنّها لم تكن تسمع إلا كلمات متقطّعة من حديثه، وبقيت تشير برأسها مستنكرة أقواله.

"الضمير؟ حتماً، عندي ضمير أنا الأخرى. لست الآن طفلة صغيرة. وضميري يقول لي إنّي أسأت التصرّف عندما أصغيت لك، وعندما استقبلتك في بيتي هذا. لكن ما العمل الآن؟ لقد تأخّر الوقت. فلماذا لم يلهمك الله الصواب قبل الآن؟ هل أنا التي دخلت إلى بيتك؟ لا، كنت أنت الذي دخلت إلى بيتي، وعاملتني كأنّي طفلة تلعب بها. فماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أخبرني أنت، ما الذي عليّ أن أفعله. إنّي لا أستطيع أن أنساك. لا أستطيع أن أتغيّر كما تغيّرت أنت. أريد أن أذهب، حتّى لو لم تأت أنت. سأحاول أن أنسى. أريد أن أذهب بعيداً.. أو..".

"أو؟".

لم تحر آنييزه جواباً. بل انزوت في ركنها وبدأت ترتجف. لابدّ أنّ جناحَ جنونٍ أسود، أو شيئاً ما قاتم اللون، قد مسّها، لأنّ عينيها تغبّشت، فقامت بحركة غريزيّة من يدها كأنّها تطرد ظلاً ظهر أمامها، ممّا اضطرّه لأن يميل من جديد نحوها، وكاد أن ينحني فوق المقعد. بدأ يمزّق خيوط قماشه القديم وهو يتخيّل أنّه يخدش جداراً انتصب أمامه ليخنقه.

لم يتمكّن من مواصلة الحديث. أجل، كان الحقّ معها. لأنّ الحقيقة لم تكن تتمثّل فيما حاول هو أن يقنعها به، الحقيقة كانت هي ذلك الجدار الذي يخنقه، ولا يعرف كيف يهدمه. قفز، بعد أن أحسّ بشعور حقيقيّ بالاختناق...

جاء دورها الآن بالإمساك بيده والضغط على أصابعه بأصابعها التي أصبحت كالسنانير.

"الله"، تمتمت، بينما غطّت عينيها باليد الأخرى. "ما كان للربّ

أن يسمح بلقائنا هذا، إذا كان سيؤول إلى الانفصال. أما وقد عدتَ هذا المساء، فلأنّك ما زلت تحبّني. وهل تظنّ أنّي لا أعرف ذلك؟ بلى، إنّي أعرف، أعرف. هذه هي الحقيقة".

عندما رفعت وجهها نحوه، بفم مرتعش، ورموش محصورة بين إصبع وإصبع، ترفّ متلألئة بالدموع، ظنّ أنّه رأى مياهاً عميقةً باهرةً جذّابة، تتماوج على ذلك الوجه. لكنّه لم ير فيه وجه امرأة، ولا وجه آنيزه، بل وجه الحبّ ذاته، فسقط إلى جنبها وقبّلها في فمها.

تهيّأ له أنّه يسقط سقوطاً بطيئاً، كما لو أنّ دوامة تسحبه نحو أعماق سحيقة سائلة ومضيئة، نحو مكان تحت البحر، نحو دوّارٍ بألوان الطيف.

طفا من جديد على السطح، فانفصل عن فمها، ووجد نفسه كغريق رُمي على رمال البحر، محطّم الأوصال، يملأه الفزع ويغمره الفرح، لكنّ فزعه كان أشدّ من فرحه.

عاد من جديد ذلك السحر الذي كان قد تهيّأ له أنّه بطل بطلاناً نهائياً، وكان لهذا أجمل وأحلى. وشعر بنسمة صوتها تهبّ عليه مرّة أخرى.

"هل تعلم، هل تعلم أنّي كنت أعرف أنّك ستعود..."

لم يكن يريد سماع المزيد، كما حدث في بيت أنتيوكو، عندما كانت الخادمة تتكلّم: فوضع يده على فمها، بينما أسندت هي رأسها على كتفه، ثمّ داعبت بلطفٍ شعره الذي ألقى عليه المصباح ضوءاً ذهبيّ اللون. ها هي إذن، صغيرة، كما هي صغيرة، ملقاة عليه، كما هي ملقاة، ها هي بكلّ قوّتها الرهيبة، قادرة على سحبه إلى أعماق البحر، على رفعه إلى هاوية السماء، على جعله شخصاً بدون إرادة.

كان هو يهرب عبر الوادي والجبل، بينما كانت هي تنتظره حبيسة في سجنها، وتعرف أنّه سيعود. "هل تعلم، هل تعلم...".

حاولت أن تتكلّم من جديد. كانت نسمات فمها تدور حول عنقه وتلتفّ عليه مثل الحبال. عاد ووضع يده على فمها، فضغطت بقوّة على يده بيدها. بقيا في هذا الصمت، وفي هذا الانتظار، إلى أن استردّ أنفاسه وحاول أن يعود، ليصبح سيّد مصيره من جديد. أجل، لقد عاد، لكنّه لم يكن كما كانت تنتظره أن يكون. وواصل النظر إلى شعرها الذهبيّ، لكن كأنّه ينظر إلى شيء بعيد، أو كأنّه ينظر إلى السطوع في تماوج البحر الذي فرّ منه.

"إنّك سعيدة الآن"، تمتم، "إنّي إلى جانبك، عدت وأنا لكِ مدى الحياة. لكن عليك أن تبقي هادئة، لأنّك أخفتيني بالفعل. يجب ألا تهتاجي، وألا يدفعك أمر على كسر خطّ حياتك. من جهتي فإنّي لن أسبّب لك أيّ ألم مرّة أخرى، على أن تعديني بأن تحافظي على هدوئك، وعلى وداعتك، كما أنتِ الآن".

شعر بيديها ترتجفان، وتضطربان بين يديه. أدرك أنّها قد بدأت تتمرّد. فضغط عليهما بقوة، بالقوّة التي كان يريد أن يضغط بها أيضاً على نفسها، ليثبّتها ويبقيها سجينة لديه.

"آنييزه، أيّتها الطيّبة! اسمعيني، إنّك لن تعرفي أبداً مقدار الآلام التي ألمّت اليوم بي، لكنّها كانت ضروريّة. لقد نزعت عنّي قشوراً غير نظيفة، كثيرةً، سلَخْت نفسي حتّى نبَع الدمُ، وها أنذا الآن هنا، ملْكٌ لكِ، أجل، كما يريد الله أن أكون لكِ، بكلّ روحي".

"انظري"، تابع متعثّراً، بهدوء وبطء، كأنّه يحفر الكلمات ويستخرجها من أعماق أعماقه قبل أن يقدّمها لها: "لديّ انطباع بأنّنا

أحببنا بعضنا بعضا منذ سنين طويلة، وأنّ كلاً منّا قد تمتّع مرّة، وتعذّب مرّة أخرى من أجل الآخر، فوصل بنا الأمر إلى حدّ الحقد والبغضاء، إلى حدّ الموت. بل إنّ كلّ عواصف البحر، وكلّ الحياة الجامحة التي في داخل البحر إنّما تعصف أيضاً في أعماقنا. لذلك فإنّنا نتصارع في داخل أنفسنا، ونتصارع من جديد، لكنّنا نبقى داخل أنفسنا. آنييزه، يا روحي، إنّي أعطيك روحي، فماذا تريدين أن أعطيك أكثر ممّا يمكن لي أن أعطيك؟".

صمت على حين غِرّة. شعر أنّها لا تفهم كلماته. ولا يمكن لها أن تفهم. ورأى أنّها تزداد بعداً عنه، كما هي الحياة بعيدة عن الموت. لكنّ هذا ما كان يجعله يتعلّق بحبّها، بل ما كان يجعله يزداد حبّاً لها، كما يتعلّق المحتضرُ بالحياة.

رفعت رأسها ببطء وتؤدة، وبحثت عن عينيه بعينين عاد العداء والخصام إليهما.

"إسمعني أنتَ أيضاً"، قالت له، "لا تخدعني مرّة أخرى. هل سنذهب ونغادر البلدة كما اتّفقنا مساء البارحة، أم لا؟ لا يمكن لنا أن نواصل العيش بهذه الطريقة، هنا، بل في هذا العالم، إنّي أعرف ذلك".

"أعرف ذلك"، استأنفت وقد ثارت حفيظتها بعد دقيقة من الصمت المؤلم. "إذا أردنا أن نعيش سويّة فلنغادر في الحال، هذه الليلة بالذات. لديّ نقودي، هل تعلم، هي معي وإنّها ملكي. أمّا أمّك، وإخوتي، فإنّهم سيعذروننا فيما بعد، عندما يرون أنّنا قرّرنا أن نعيش في الحقيقة. أمّا على هذه الطريقة، فلا، من المؤكّد أنّه لا يمكن لنا أن نواصل العيش على هذه الطريقة".

"آنييزه!"

"أجبني في الحال، ودع عنك غير ذلك من كلام".

"أنا لا أستطيع الهروب معك".

"آه، فلماذا عدت إذن؟ اتركني، انصرف، اتركني!".

أمّا هو فلم يتركها. شعر أنّها ترتعد بكلّ فرائصها، فخاف منها، بل ظنّ أنّها ستعضّه عندما رآها تنحني فوق أيديهما المترابطة.

"اذهب عنّي، انصرف"، كرّرت القول، "إنّي لم أرسل في طلبك. إذا كان علينا أن نتحلّى برباطة الجأش، فلماذا عدت إذن؟ لماذا عدت وقبّلتني؟ آه، إنّك تخطئ إذا كنت تظن أنّي مجرّد دمية بين يديك. وتخطئ إذا كنت تريد أن تأتي إليّ في المساء، لتعود وتكتب لي رسائل مهينة في الصباح. كما عدت هذا المساء، فإنّك ستعود غداً في المساء، ثم في كلّ مساء، لمرّات عديدة أخرى. ولن ينتهي الأمر حتّى تقودني إلى الجنون. لكنّي لا أريد هذا، لا، لا أريده! قلتَ إنّ علينا أن نكون نقيّين أقوياء"، استأنفت، بينما ازداد شحوب وجهها المتأسّي الهرم، ليكتسي بشحوب الموتى، "لكنّك لم تذكر هذا إلا الآن. إنّك ترعبني. فاذهب بعيداً عنّي. هل فهمت! انصرف هذه الليلة بالذات. حتّى أستيقظ في الغد ولا أشعر بالخوف من أن أضطرّ لانتظارك، ولأن أتعرّض لمزيد من الذلّ على يديك".

"إلهي، يا إلهي!" انتحب وهو ينحني فوقها. لكنّها دفعته عنها.

"وهل تظنّ أنّك تكلّم طفلة صغيرة؟ لقد كبرتُ. وأنت الذي عجّلت في هرمي، فعلتها خلال ساعات قليلة. تكلّمت عن صراط مستقيم في الحياة! لابدّ أنّك كنت تعني طريق فضيحةٍ نمارسها في

الخفاء. أليس كذلك؟ بل لربّما دبّرت لي زوجاً، ولربّما قمت أنت بتزويجي في حفل الزفاف...وهل نواصل بعدها الالتقاء، لنخدع الجميع طيلة الحياة؟ انصرف، انصرف عنّي، إذا كانت هذه ظنونك، فإنّك لا تعرفني. قلت مساء البارحة: "أجل، فلنذهب من هنا، فأنا سأعمل، وسنتزوّج". "هل هذا ما قلته لي؟ ألم تقل هذا؟ ثمّ تأتي هذه الليلة لتحدّثني عن الله وعن التضحيات. فلنضع إذن نهاية للأمر. لنترك بعضنا. لكنّه عليك، أكرّر، عليك أن تغادر البلدة هذا المساء بالذات. لا أريد أن أراك بعد الآن. وإذا رأيت أنّك تقيم القدّاس في كنيستنا صباح الغد، فإنّي سآتي إلى مصلّى الكنيسة وأقول للشعب من على منبرها: هذا هو قدّيسكم، يصنع المعجزات في النهار، ثمّ يأتي في الليل ليغوي البنات الوحيدات".

حاول أن يغلق لها فمها بيده، وبما أنّها واصلت صراخها، وهي تقول "اذهب، انصرف"، فإنّه أمسك برأسها وضمّه إلى صدره، ثم نظر بخوف نحو الأبواب المغلقة. تذكّر كلمات أمّه وصوتها الذي كان يرنّ في الظلام: "لقد جلس القسّ القديم إلى جانبي وقال لي: سأطردك عن قريب، أنت وابنك من هذه الكنيسة".

"آنيزه، إنّك تهذين يا آنيزه"، قال لها بصوت منتحب فوق عنقها، بينما كانت هي تهتزّ لتتملّص منه. "اهدأي، اسمعيني، لم نفقد شيئاً بعد، ألا ترين كم أحبّك؟ ألف مرّة أكثر من ذي قبل. ولن أذهب، لا، لن أذهب. أريد أن أبقى إلى جانبك لأنقذك. لأقدّم لك روحي كما سأقدّمها لربّي ساعة موتي. ماذا تعرفين أنت عن آلامي التي قاسيتها منذ ليلة الأمس وحتّى هذه الساعة؟ كنت أهرب وكنت أحملك معي، كنت أهرب كمن يجرّ ناراً التصقت به، يجري ظنّاً منه أنّه سيتخلّص من النار، لكنّ اللهب يزداد تعلّقاً به. أيّ مكان لم أذهب

إليه اليوم؟ ما الذي لم أفعله لكي أعود إلى هذا البيت؟ لكنّي الآن هنا، ها أنذا هنا. ألا تشعرين بي؟ إنّي لن أخونك، لن أنساك! لا أريد أن أنساك. لكن علينا أن نبقي على نقائنا يا آنييزه، علينا أن نحفظ حبّنا حتّى الأبد، أن نخلطه بأجود ما في الحياة، بالألم، بالتنازلات، بالموت نفسه، أي مع الله. هل تفهمين هذه الأمور يا آنييزه؟ بلى، إنّك تفهمينها. بلى، قوليها لي".

لكنّها كانت تدفعه عنها، كما لو أنّها تريد أن تسحق له صدره برأسها. في النهاية تمكّنت من التملّص منه، فانتصبت واقفة، متخشّبة، بشعرها الحريريّ الجميل، المبعثر كالشرائط حول وجهها القاسي.

بدت بفمها المغلق وجفنيها المسبلين كأنّ النوم قد تسلّط عليها بأحلام الانتقام. فشعر هو بالخوف من ذلك الصمت، ومن ذلك التخشّب أكثر ممّا خاف من كلماتها الطائشة ومن حركاتها المتشنّجة.

استعاد يديها وضمّهما بين يديه، لكنّها كانت أربع أيد قد ماتت دون الفرح ودون ضمّة الحبّ.

"ألا ترين يا آنييزه، أنّك توافقيني الرأي؟ إنّك طيّبة، اذهبي الآن لترتاحي، وفي الغد ستبدأ للجميع حياةٌ جديدة. سنلتقي رغم كلّ شيء، سنلتقي كلّ يوم إن شئت ذلك. سأكون صديقك، سأكون أخاك، سندعم بعضنا بعضاً. ستكون حياتي هي حياتك، فاستعمليني كيفما شئت. سأكون إلى جانبك حتّى ساعة موتي، بل في الآخرة أيضاً، حتّى الأبد".

أثارت نبرة الصلاة حفيظتها من جديد. لوت يديها بعض الشيء بين يديه، حركت شفتيها لتتكلّم، لكنّها ما إن أطلقها، حتّى جمعت يديها على حضنها ومالت برأسها فظهر على وجهها الألم، ألم اليأس الصارم.

لم ينقطع عن النظر إليها، كما ينظر المرء إلى شخص يحتضر. وكان خوفه يزداد، وانزلق على قدميها، وضع جبهته في حضنها، قبّل يديها. لم يعد يهمّه إن رآه أحد، أو أن يسمعه أحد. لقد أصبح عند قدمي المرأة وبين آلامها، كأنّه المسيح في حضن الأمّ.

شعر كأنّه لم يكن نقيّاً كما هو الآن نقيّ، وميّتاً في هذه الحياة الدنيا. ومع هذا فقد كان يشعر بالخوف.

بقيت آنييزه ثابتة بيديها الباردتين، غير عابئة بتلك القبلات الميّتة، فنهض وعاد ليكذب من جديد.

"أشكرك يا آنييزه. هكذا أفضل. هذا ما يسعدني. لقد تجاوزنا المحنة. عليك الآن أن تهدأي. وأنا سأذهب. في الغد"، أضاف بصوت منخفض وهو ينحني بخجل، "في الغد ستأتين إلى القدّاس وسنقدّم الأضحية لله سويّة".

فتحت عندها عينيها ونظرت إليه ثمّ عادت وأغمضتهما. لقد بدا أنّها جُرحت جرحاً مميتاً وأنّ عينيها قد فتحتا للمرّة الأخيرة متضرّعتين ومهدّدتين، قبل أن تنغلقا إلى الأبد.

"أنت ستذهب هذه الليلة بعيداً من هنا، كي لا أراك مرّة ثانية". قالت وهي تشدّد لفظ الكلمات، ففكّر أنّه من غير المجدي، الآن على الأقل، مجابهة هذه القوّة العمياء.

"لا أستطيع أن أذهب بهذه الطريقة"، تمتم. "غداً سأقيم القدّاس، وستأتين أنت لتحضريه. بعدها سأسافر إذا كان الأمر ضروريّاً.

"سأجيئ في صباح الغد وأتّهمك أمام الشعب".

"إذا فعلتِ هذا فهذا يعني أنّ هذه هي إرادة الله. لكنّك لن تفعلي يا آنييزه. يمكنك أن تبغضيني، لكنّي سأتركك بسلام. وداعاً".

لكنّه لم يذهب. بقي ينظر إليها. وقف متأهّباً، ينظر إليها من علٍ، بينما كان شعرها الناعم يلمع رغم أنّها في الظلّ، شعرها الحلو الذي أحبّه والذي جذب في مرّات كثيرة راحتي كفّيه، إنّه الآن يثير شفقته، يبدو وكأنّه عصبة سوداء ضمّدت به جراح رأسها.

ناداها للمرّة الأخيرة:

"آنييزه؟ هل من الممكن أن نفترق بهذه الطريقة؟"، ثمّ أضاف: "أعطني يدك، انهضي، افتحي لي الباب".

نهضت وبدا أنّها تطيع، لكنّها لم تمدّ له يدها، بل ذهبت مباشرة نحو الباب الذي جاءت منه.

توقّفت هناك وبقيت تنتظر.

"ماذا بوسعي أن أفعل"، تساءل في قرارة نفسه. كان يعرف حقّ المعرفة أنّ الوسيلة الوحيدة لكبح جماحها هي السقوط أمام قدميها، ارتكاب الخطيئة والضياع سويّة.

لكنّه لم يرغب بذلك، لا يريده. فبقي واقفاً في مكانه وخفض بصره ليتهرّب من نظراتها، وعندما عاد ورفعه لم تكن هي هناك، لقد اختفت، ابتلعها ظلام بيتها المظلم.

من أعلى الجدران كانت أعين الغزلان والوعول الزجاجيّة تنظر إليه بحزن، بل وبسخرية. بقي وحيداً ينتظر داخل الصالة الكبيرة الحزينة، فأدرك مقدار بؤسه وذلّه، وبدا له أنّه لصّ، بل أسوأ من اللصوص، أي أنّه مثل الضيف، يسرق، مستغلاً خلوّ بيت أصدقائه.

خفض بصره مرّة أخرى ليتهرّب أيضاً من نظرات الرؤوس المصفوفة على الجدار. لكنّه لم يتردّد لحظة، فحتّى لو امتلأ صمت البيت بالرعب بسبب صرخات موت المرأة، فإنّه لن يندم البتّة على صدّه لها.

انتظر دقائق أخرى. لم يظهر أحد. فبدا له أنّه واقف وسط عالم ميّت مكوّنٍ من أحلامه وأخطائه، بانتظار أن يساعده أحد على الخروج منه. لم يظهر أحد. توجّه عندها نحو باب البستان، اجتاز الطريق على طول الجدار، تحت ظلّ أشجار التين، وخرج من الباب الذي يعرفه حقّ المعرفة.

ها هو من جديد على الدرج المظلم، لكنّه الآن تجاوز الخطر، أو على أقلّ تقدير، الخوف من الخطر.

توقّف أمام باب غرفة أمّه إذ رأى من الأفضل، أن يخبرها في الحال بنتيجة لقائه وبتهديدات آنيزه. بيد أنّه سمع نفخ شخيرها، فتجاوز الغرفة. لقد نامت أمّه، لأنّها كانت واثقة منه وشعرت بأنّه قد نجا.

نجا! ألقى نظرة حوله، حول غرفته، كأنّه عائد بالفعل من رحلة مليئة بالكوارث. لكنّ الهدوء كان يعمّ المكان، والأشياء مرتّبة. فبدأ بخلع ملابسه وهو يتحرّك على رؤوس أصابعه، إذ قرّر ألا يحطّم مرّة أخرى ذلك الهدوء، وألا يخرق ذلك الصمت.

ها هي ملابسه تتدلّى من الشمّاعة، أشدّ سواداً من ظلّها على الجدار. ها هي القبّعة في الأعلى، فوق رقبة رقيقة من الخشب بارزة إلى الأمام، بينما كمّا روبه الفضفاض يتهدّلان مُنهكيْن نحو الأسفل.

ذلك الشبح القاتم والفارغ، كأنّ مصّاص دماء قضمه وفرّغه من دمائه، يكاد الآن يثير مخاوفه. بدا له كظلّ للرعب الذي تحرّر منه والذي ما زال ينتظره ليرافقه في الغد عبر دروب الدنيا.

لحظة واحدة، أدرك بعدها أنّه وقع من جديد في براثن الكابوس. إنّه لم ينجُ بعد، ولا بدّ من تجاوز ليلة أخرى، مثل مقطع آخر جديد، عليه أن يعبره، عبر بحر هائج عاصف.

كان منهكاً، أثقل التعبُ جفنيه فأُغمِضَا، لكنّ حزناً مبهماً كان يمنعه من الاستلقاء على السرير أو حتّى من الجلوس، بل من أخذ قسط من الراحة بأيّ شكل كان.

تابع التنقّل هنا وهناك، والتوقّف لفعل أمور غير معتادة، كفتح الدروج ببطء، والنظر فيما في داخلها.

عندما مرّ أمام المرآة نظر إلى خياله. رأى أنّ وجهه رماديّ، أنّ شفتيه قرمزيّتان وأنّ عينيه غائرتان. "راقِب نفسك، يا باولو"، قال لخياله، ثمّ انحاز جانباً بعض الشيء كي يسقط ضوء المصباح بشكل أفضل على المرآة. انحاز معه خياله الذي في المرآة، فبدا كأنّه يهرب منه. بقي يحدّق فيه فرأى حدقتي العينين ممدّدتين، ممّا ولّد في نفسه انطباعاً غريباً. بل بدا له أنّ ذاك هو باولو الحقيقيّ، باولو الذي لا يكذب، الذي يُظهر في شحوب وجهه كلّ الخوف من الغد.

"لماذا أتظاهر إذن أمام نفسي بوجود اطمئنان لا أشعر به؟ يجب عليّ أن أغادر هذه الليلة بالذات، كما أرادت".

هدأ بعض الشيء فذهب وارتمى على السرير. ظنّ عندها أنّه سيرى أعماق ضميره بصورة أفضل، عندما يغرِق وجهَهُ في الوسادة، ويغلق هو عينيه.

"أجل، يجب أن أغادر في هذه الليلة بالذات. فالمسيح نفسه يأمر بتجنّب الفضائح. من الأفضل أن أوقظ أمّي لأعلمها، بل ولأسافر معها إذا أمكن، فتأخذني معها للمرّة الثانية، كما فعلت عندما كنت طفلاً، حيث أستطيع أن أبدأ حياة جديدة".

ثمّ شعر أنّ هذه ليست إلا مبالغات، وأنّه لن يملك الشجاعة على تنفيذ ما يفكّر به.

ثمّ لماذا يفعل؟ فهو على ثقة، في نهاية الأمر، بأنّ آنيزه لن تنفّذ بدورها ما هدّدت به. فلماذا يغادر؟ كما زال خطر العودة إليها، والسقوط بسببها ومعها، ذلك بعد أن تجاوز المحنة.

لكنّ المبالغة عادت وتملّكته.

"ومع ذلك فعليك أن تغادر يا باولو، أيقِظ أمّك لتسافرا سويّة. ألا تسمع من الذي يكلّمك؟ إنّي أنا، إنّي آنيزه. هل تعتقد حقّاً أنّي لن أنفّذ تهديدي؟ ربّما لن أنفّذه، لكنّي أقول لك إنّ عليك مع هذا أن ترحل. هل تظنّ أنّك قد انفصلت عنّي؟ لكنّي أنا موجودة في أعماقك، بل إنّي بذرة الشرّ في أساس حياتك. إذا بقيت هنا فلن أتركك لحظة واحدة، سأكون ظلاً تحت قدميك، جداراً يفصل بينك وبين أمّك، بل بينك وبين نفسك. ارحل واذهب بعيداً عنّي".

حاول أن يلجمها، لكي يلجم ضميره.

"أجل، إنّي سأذهب، ألا ترين؟ سأذهب، بل سنذهب سويّة، لأنّك في داخلي، حيّة وأشدّ حياة منّي، فاهدئي وكفّي عن تعذيبي. إنّنا مع بعض، نسافر سويّة، يحملنا الزمان نحو الأبد. كنّا منفصلَيْن ومتباعدَيْن عندما كنّا ننظر في عيون بعضنا، عندما كانت أفواهنا تتبادل القبل، كنّا منفصلَيْن وأعداء لبعضنا. لم تبدأ وحدتنا الفعليّة إلا الآن، في بغضائك، في صبري، وفي تنازلاتي".

بدأ التعب بعد ذلك ينال منه. كان يسمع نحيباً خفيّاً متواصلاً يصل من خارج نافذته، كأنّه نوْح حمامة تبحث عن رفيقها. لكن بدا له أنّ تلك الشكوى المليئة بالألم والمتعة ما هي إلا نحيب الليل وآهاته. الليل

الأبيض بضياء القمر، على بياضه خمار رخو، وفي سمائه غيوم متفرّقة كالريش المتطاير. ثمّ إنّه سرعان ما أدرك أنّ النحيب ليس إلا نحيبه، لكنّ النعاس كان قد استولى عليه، وابتعد عنه الخوف والألم، كما ابتعدت الذكريات. تهيّأ له أنّه سافر حقّاً على حصانه، صعوداً على دروب الجبل. كلّ شيء كان هادئاً، واضحاً. كان يرى عبر الشجيرات الصفراء الضخمة سهوباً غطّاها عشب أخضر طريّ يريح النظر، أمّا النسور فكانت جاثمة على الصخور تحدّق بالشمس.

ظهر الحارس أمامه على حين غِرّة، حيّاه ثمّ وضع كتاباً مفتوحاً على السرج.

وهكذا استأنف هو قراءة رسالة بولس القديس إلى أهل كورنثوس، وبدأ من النقطة التي توقّف عندها في الليلة السابقة. (وأيضا: الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة) [1] الخ..

كان القدّاس يبدأ في أيّام الأحد متأخّراً عن بقيّة الأيّام. لكنّه كان يتوجّه إلى مصلّى الكنيسة مبكّراً، وذلك ليستمع إلى اعترافات النسوة اللائي يرغبن بعدها بتناول القربان.

لذلك فقد أيقظته أمّه في الوقت المعهود.

لم يخلد إلى نومه إلا منذ ساعات قليلة، لذلك فقد كان يغطّ في نوم ثقيل، أعمى. استيقظ، لكنّه لم يكن يذكر شيئاً، بل كان يشعر برغبة عكرة في أن يعود حالاً إلى النوم. عندما تكرّر القرع على الباب تذكّر كلّ شيء.

انتصب مباشرة على قدميه، متخشّباً من شدّة الخوف.

---

(1) كما جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 20: 3.

"ستأتي آنييزه إلى الكنيسة وستتّهمني أمام الشعب".

خلال نومه، مدّت الثقة بأنّها ستنفّذ تهديداتها جذوراً في أعماقه، ولم يعرف لهذا سبباً.

سقط على الكرسيّ يملأه شعور بالضعف والعجز، والموت في ركبتيه. كما شوّش خمارٌ من الضباب ذهنه. فكّر أنّه مازال أمامه وقت كي يتجنّب الفضيحة، يمكنه مثلاً أن يتصنّع المرض وألا يقيم القدّاس، بينما يكسب الوقت، ليحاول أن يهدّئ من روع آنييزه. لكنّ حزنه تزايد بمجرّد أن حام ذهنه حول فكرة استئناف المأساة من جديد والدخول مرّة أخرى في بؤس اليوم الفائت.

نهض وتهيّأ له أنّ جبينه سيصطدم بالسماء عبر زجاج النافذة.

ضرب بقدميه على أرض الغرفة ليتخلّص من التنميل الذي أوقف الدم في عروقه، ثمّ ارتدى ملابسه، شدّ حزامه على خصره والتفّ على التمام داخل ملابسه، بالطريقة التي رأى فيها مرّة الصيّادين يشدّون قميص الخراطيش حولهم، ثمّ يلتفّون بمعاطفهم قبل الذهاب نحو الجبل.

في نهاية الأمر، عندما فتح النافذة على مصراعيها وأطلّ منها، بدا له أنّه قد فتح للتوّ عينيه على ضوء النهار، بعد أن انحسر كابوس الليل. وأنّه خرج في نهاية الأمر من سجن نفسه بالذات، وتصالح مع الأشياء الخارجيّة، رغم أنّ الصلح كان صلحاً إجباريّاً مليئاً بالأحقاد الخبيثة، إذ ما عاد أن ينسحب وينتقل من هواء الخارج النقيّ إلى هواء غرفته الساخن والمعطّر، حتّى أمسكت به الأحزان وأعادته إلى داخل نفسه.

هرب مرّة أخرى وهو يفكر بالذي يجب أن يقوله لأمّه.

سمع صوتها الأجشّ نوعاً ما وهي تطرد الدجاجات التي كانت تسعى لغزو غرفة الطعام، كما سمع صوت تحليقها البطيء، وشمّ رائحة القهوة المغليّة وروائح العشب في الخارج.

كانت تتردّد على الدرب في أسفل المرتفع دندنات نعاج في طريقها إلى المرعى، بدت كأنّها صدى ساذج لدويّ الأجراس الرتيب، رغم ما فيه من بهجة، والذي كان أنتيوكو يدعو الناس بواسطته، من أعلى برج الكنيسة، كي يستيقظوا ويتوجّهوا إلى القدّاس.

كان كلّ شيء هادئاً، لطيفاً، مشبعاً بوضوح الفجر الورديّ. ذكّره المشهد بأحلامه.

لا شيء كان يمنعه من الخروج والتوجّه نحو الكنيسة واستئناف حياته. لكن ها هو ذا يشعر بالخوف من جديد: الخوف من الذهاب قدماً، والخوف من الرجوع إلى الخلف. بدا له أنّ وقوفه على حجارة عتبة بابه، شبيه بالوقوف على قمّة جبل، ليس فوقها مكانٌ يمكن له أن يصعد إليه، أمّا تحتها فهناك الهاوية بفمها الفاغر المخيف. كانت لحظات تفوق الوصف، شعر خلالها بقلبه يضجّ في صدره، وتولّد لديه انطباع جسديّ بأنّه يطلّ بالفعل على هاوية يسيل في أعماقها نهرٌ مليء بالدوامّات، ويدور دولاب على هواه في رغوة تلك الدوّامات، يدور بلا هدف، إلا طحن المياه الراكضة في مجراها.

لكنّ قلبه بالذات هو الذي كان يدور، هكذا بلا فائدة، في دوّامة الحياة. أغلق الباب ورجع إلى الخلف ليجلس على الدرج، كما فعلت أمّه في الليلة السابقة. تخلّى عن السعي لحلّ مشكلته، غير أنّه انتظر مجيء آخرين ليساعدوه.

وجدته أمّه على هذا الوضع، نهض في الحال عندما رآها. أثلجت مشاهدتها صدره، رغم ما في أعماقه من شعور بالمهانة والذلّ، هو الواثق كلّ الثقة بنصيحتها له بأن يتابع الطريق التي اختارها.

إلا أنه رأى في الوهلة الأولى وجهها الخشن يبيَضّ وينكمش من الحزن: "لماذا أنت جالس هكذا يا باولو؟ هل تشعر بألم؟".

"ماما"، قال لها وهو يتّجه نحو الباب ودون أن يلتفت، "لم أشأ أن أوقظك ليلة البارحة. كان الوقت متأخّراً. لقد ذهبت إلى هناك. ذهبت إلى هناك؟.

نظرت أمّه إليه وقد استعاد وجهها نضارته. سُمِعت، خلال الصمت القصير الذي أعقب كلماته، أجراسُ الناقوس تدقّ بسرعة أكبر وبإصرار أشدّ، وكأنّها تدقّ فوق البيت.

"إنّها في صحّة جيّدة، لكنّها محتدّة هائجة، طلبت منّي أن أغادر البلدة، وإلا فإنّها تهدّد بالمجيء إلى مصلّى الكنيسة، وإثارة فضيحة فيها. إنّها تريد أن تندّد بي أمام الشعب".

صمتت الأمّ، لكنّه شعر أنّها كانت وراءه، صلبة العود وصامدة، هيّا، هيّا، تشجّع، كما كانت تقول له عندما كان يخطو خطواته الأولى.

"أرادت منّي أن أغادر في هذه الليلة بالذات.. وإلا.. قالت.. إنّها ستأتي هذا الصباح إلى مصلّى الكنيسة.. إنّي لا أخافها.. على كلٍّ، أعتقد أنّها لن تأتي".

عاد وفتح الباب، فارتعشت شبكة من الضياء الفضّيّ في المدخل الرماديّ. كأنّها تتوخّى صيده، هو وأمّه، وتسحبهما نحو النور.

توجّه نحو مصلّى الكنيسة دون أن يلتفت، بينما بقيت الأمّ أمام الباب تنظر إليه وهو يبتعد.

لم تفتح أيّاً من شفتيها. لكنّ رعشةً خفيفة سرت وهزّت ذقنها الرصينة. ثمّ إنّها صعدت نحو غرفتها، فارتدت ملابسها بسرعة، لتذهب هي الأخرى إلى مصلّى الكنيسة. شدّت هي أيضاً حزامها وسارت بحزم، ولم تنس قبل الخروج طردَ الدجاجات، وسحبَ آنية القهوة من على النار، وإغلاقَ الأبواب. وفي النهاية أتمّت ربط طرف منديلها حول فمها وحول ذقنها، لأنّ الرعشة ما زالت تهزّها، رغم ما بذلته من جهد لإيقافها.

ألقت التحيّة بعينيها على النسوة القادمات من البلدة، والرجال المسنّين الذين كانوا يقفون على شرفة الساحة، بينما كانت الأغطية السوداء المدبّبة تنتصب على رؤوسهم، أمام السماء وآفاقها الورديّة.

في هذه الأثناء كان هو قد أصبح داخل مصلّى الكنيسة.

كان هناك بعض التائبات، على عجلة من أمرهنّ، كنّ ينتظرن في مجموعة حول كوّة الاعتراف، لا بل إنّ الأولى التي وصلت كانت قد جلست على المقعد، بينما بقيت الأخريات ينتظرن دورهنّ.

كان هناك أيضاً بعض الشباب المبكّرين، وقد شكّلوا إكليلاً حول نينا مازيّا التي كانت راكعة على الأرض، تحت حوض الماء المقدّس، فبدا وكأنّها هي التي تسندها برأسها الشيطانيّ الصغير. اصطدم القسّ بهم وهو يسير مشتّت الذهن، وسرعان ما غضب عندما رأى الفتاة، التي وضعتها أمّها في ذلك المكان، خصّيصاً لكي يراها الجميع. قال في نفسه إنّه يتعثّر بها دائماً في طريقه، وكأنّ في هذا نوعاً من التوبيخ له.

"اتركي هذا المكان في الحال" قال بصوت قويّ، تردّد صداه في أنحاء الكنيسة الصغيرة. فتوسّع في الحال إكليل الشباب، وتحوّل إلى مكان أبعد، بقيت نينا مازيّا في وسطه. لكنّهم ابتعدوا عنها قليلاً بشكل يمكن أن يشاهدها جميع من كان في الكنيسة.

كانت جميع النسوة يملن برؤوسهنّ الضخمة نحوها من غير أن ينقطعن عن تلاوة الصلوات، فبدا كأنّها هي المعبودة في هذه الكنيسة البربريّة الصغيرة، التي تجتاحها روائح القرويّين البريّة، مخلوطة بالغبار الورديّ الذي أثاره الصباح عبر الحقول.

شقّ طريقه مباشرة، لكنّ وجْده وقلقه كانا في ازدياد. لمس بثوبه المقعد الذي اعتادت آنييزه اتّخاذه مِركعاً لها، وهو مقعد قديم لعائلتها، وفيه مركع من الخشب المحفور. قاس بعينيه، ثمّ بخطواته، المسافة التي تفصل المقعد عن المذبح.

"عندما أرى أنّها نهضت لتنفّذ مشروعها الشرّير، سيكون لديّ متّسع من الوقت لكي أدخل إلى غرفتي".

اقشعرّ بدنه عندما دخل إلى الغرفة. كان أنتيوكو قد نزل من البرج ليساعده على ارتداء ملابسه، وكان ينتظره أمام الخزانة المفتوحة. كانت علامات الجدّ مرسومة على وجهه، فضلاً عن شحوب مؤس غير معهود فيه، بدا كأنّه قد استغرق منذ الآن بخيالات مهمّته المقبلة التي تنبّؤوا له بها في الليلة السابقة. لكنّ هذا القناع كان يرتعش على وجهه الذي ما زال متأثّرا بهواء البرج العليل، وكانت عيناه متألّقتان بالفرح تحت حاجبيه المنخفضين، كما أنّه أطبق على أسنانه وراء شفتيه المغلقتين أيضاً، سعياً منه لكبت ضحكته. كان قلبه يخفق، وفيه كثير من أنوار يوم العيد هذا وتمتماته وبهجته. لكنّه وبينما كان يضع

على معصم القسّ دانتيل القميص، رفع على حين غرّة عينيه فتعتّمتا، عندما رأى أنّ يد القسّ ترتجف تحت الدانتيل، بل إنّ وجهه، الذي كان يقدّسه، قد أصيب بالشحوب والاضطراب.

"هل أنت مريض؟"

أجل، كان القسّ مريضاً، رغم أنّه أشار بالنفي. كان اللعاب المالح يتدفّق داخل فمه، فظنّه دماً يسيل. لكنّ أملاً كان يزدهر في أعماق آلامه.

"سأسقط ميّتاً، سينقصم قلبي. وبهذا، على أقلّ تقدير، ينتهي كلّ شيء".

نزل مرّة أخرى ليبدأ في الاستماع لاعترافات النسوة، فرأى أمّه قرب باب مصلّى الكنيسة في آخر الردهة. كانت ثابتة قاسية المعالم، واقفة على ركبتيها كأنّها تحرس مدخل الكنيسة، بل كلّ الكنيسة. كانت على استعداد لأن تسندها إذا حدث وانهارت.

لكنّه لم يكن قادراً على استعادة شجاعته، بل إنّ براعم حبّه للموت قد نمت، وواصلت النموّ، لتمسك بلبّ صدره وتخنق قلبه.

هدأ قليلاً عندما وصل إلى كوّة الاعتراف، بدا له أنّه دخل إلى القبر، وأنّه أصبح في الخفاء على الأقلّ، حيث يمكن له أن يطّلع على مخاوفه الرهيبة، وحسب أنّ تمتمات النساء الخفيفة خارج الشبك، الممزوجة بتنهّداتهنّ وأنفاسهنّ الساخنة، ما هي إلا حفيف الأعشاب عندما تتحرّك فوق المرتفع بمرور الزواحف بينها. كانت آنيزه هناك من جديد. محبوسة في مخبئها الذي حملها مرّات عديدة داخله ضمن أفكاره وتخيّلاته. وكانت أنفاس النسوة الصبايا وروائح شعرهنّ وثيابهنّ الخاصّة بالأعياد، المعطّرة بالخزامى، كانت تجتاز ثنايا أحزانه، لتذكي شغفه وعواطفه.

برآهنّ جميعاً، برآهنّ من جميع الخطايا، وفكّر أنّه ربّما عُرض هو بالذات، بعد قليل من الوقت، ليطلب رحمتهنّ.

ألمّ به شوقٌ شديد للخروج، ليرى فيما إذا كانت آنييزه قد وصلت. لكنّ مقعدها كان فارغاً.

ربّما أنّها لن تجيء أبداً. لكنّها كانت تجلس في بعض الأحيان في صدر مصلّى الكنيسة، مستندة إلى كرسيّ تحمله الخادمة لها. التفت، فرأى شخصية أمّه الخشبية. عندما ركع ليبدأ إقامة القدّاس، بدا له أنّ روحه تنحني أيضاً أمام الله، تنحني وقد ارتدت ثياب آلامه، كما ارتدى هو القميص وعباءة الكهنوت.

فرض عندها على نفسه ألا ينظر ثانية فيما وراءه، وأن يغلق عينيه كلّما اضطر ليلتفت كي يبارك. تولّد لديه انطباع بأنّه يسير، ويسير صعوداً على طريق منحدر من العذاب والمحنة، وأنّ رقبته قد أصيبت بتقلّص عصبيّ بسيط يلويها، كلّما أراد أن يتوجّه نحو الشعب، كأنّما لمنعه من رؤية الهاوية تحت قدميه. لكنّ مقعدها المحفور كان يظهر باستمرار أمامه، كان يراه من خلال خفقان جفنيه، وعليه شخص آنييزه الأسود، أسود على خلفيّة الكنيسة الرماديّة.

وبالفعل فقد كانت آنييزه موجودة هناك، ترتدي ثياباً سوداء، وتضع خماراً أسود حول وجهها العاجيّ، وكان المشبك المذهّب الذي تضعه في كتاب الصلوات يلمع بين أصابع يديها بقفّازيهما الأسودين. بدا أنّها تقرأ، لكنّها لم تكن تقلب الصفحة مطلقاً. كانت خادمتها راكعة على الأرض قربها، رأسها رأس الجارية الملتصق بالمقعد. وكانت ترفع من حين لآخر عينيها الشبيهتين بعين كلب وفيّ، نحو سيّدتها أعلى منها. كانت يقظة محترسة، كأنّها تعرف ماذا يدور في خلد سيّدتها من أفكار تثير الأسى.

كان هو يرى كلّ شيء، من أعلى المذبح، لم يعد لديه أمل، رغم أنّ شيئاً يقول له في أعماق قلبه إنّه لا يمكن لآنيزه أن تنفّذ تهديدها الجنوني.

عندما قلب صفحة الإنجيل خنَقَت شهقةٌ الكلماتَ في حلقه، فشعر بأنّ جسمه قد تبلّل كلّه بالعرق، من جديد. توجّب عليه أن يستند إلى الكتاب، إذ شعر أنّه سيغمى عليه.

لكنّها كانت لحظة، ثمّ استردّ قواه.

كان أنتيوكو ينظر إليه، ولاحظ تفاقم الأذى على ذلك الوجه الذي كان يتحلّل مثل وجوه الأموات. بقي قربه، على استعداد لدعمه، بينما كان يقلّب نظره من حين لآخر بين الرجال كبار السنّ، الذين كانت ذقونهم تبرز عبر الدرابزين، وذلك ليرى فيما إذا أحدهم قد لاحظ ما أصاب القسّ من سوء.

لم يلاحظ ذلك أحد. بل إنّ أمّه بالذات كانت تصلّي ثابتة على مقعدها، وتنتظر، من غير أن ترى شيئاً من السوء الذي اعتراه.

كان أنتيوكو يقترب منه بانتباه متزايد، وعندما لاحظ منه ذلك، حدّق فيه خائفاً، عندها أجاب الفتى بعينيه المشرقتين وبحركة سريعة بحاجبيه تعني: "إنّي أنا هنا بالمرصاد، فتابع عملك".

فتابع عمله، صعوداً على طريق الآلام. كانت بعض الدماء تتدفّق إلى قلبه، فهدأت أعصابه، لكنّ هذا كان نوعاً من ارتماء اليأس في أحضان الخطر، أو تراخي غريقٍ لم يعد يملك القوّة على مصارعة الأمواج.

لم يتمكّن من إغلاق عينيه ثانية وهو يتوجّه نحو المؤمنين.

"كان الله معكم".

كانت آنييزه هناك، في مكانها، منحنية منكبّة على قراءة الصفحة التي لم تقلبها البتّة، وكان المشبك المذهّب يلمع في طرف الظل. وكانت الخادمة جاثمة على الأرض تحت قدميها. وكذلك كانت جميع النساء، بمن فيهنّ أمّه في صدر الكنيسة، كنّ يجلسن على الأرض منطويات برخاوة على أعقابهنّ، لكنّهن على استعداد للنهوض من جديد على الرُكب ما إن يحرّك القسّ كتابه.

حرّك الكتاب واستأنف صلواته، وحركاته البطيئة، وقد استولى عليه نوع من الحنان، وهو يفكّر بيأس أنّ آنييزه سترافقه على طريق آلامه كما رافقت مريمُ المسيحَ، وأنّها ستصعد بعد لحظات قليلة إلى المذبح، فيتقابلان من جديد على قمّة خطيئتهما، ويكفّران سويّة عنها، كما سبق أن ارتكباها سويّة.

كيف يمكن له أن يكرهها، إذا كانت تحمل عقابه في ثناياها، وإذا كان كرهها ما زال حبّاً؟.

ناول نفسه القربان المقدّس، فسالت بالفعل رشفة النبيذ الطفيفة ضمن صدره، كأنّها قطرات دم. ها هو يشعر الآن بالقوّة، لقد استعاد نشاطه، وامتلأ قلبه بوجود الله.

بينما كان يتوجّه نحو النسوة، عاد ورأى، بين أمواج الرؤوس المنحنية، شخصيّة آنييزه، ثابتة على مقعدها. حنت هي أيضاً رأسها فوق يديها، لربّما كانت تستجمع قواها قبل أن تتحرّك، فشعر على حين غِرّة بشفقة شديدة عليها. شعر بالرغبة في التوجّه نحوها لكي يبرأها، وأن يقدّم لها القربان المقدّس كما يقدّمه عادة للمحتضرين. استجمع هو أيضا قواه، لكنّ أصابعه كانت ترتجف بينما كان يقرّب القرص من أفواه النساء.

ما إن انتهت مناولة القربان المقدّس حتّى غنّى عجوز من القرويّين أنشودة دينيّة. وكان المؤمنون يردّدون أبيات الأنشودة بصوت منخفض، بينما ردّدوا اللازمة بصوت مرتفع.

كانت أنشودة بدائيّة رتيبة، قديمة مثل الأناشيد التي كان يغنّيها الإنسان البدائيّ في الغابات، عندما سكنها للمرّة الأولى. كانت قديمة ورتيبة، مثل ضرب الأمواج على شاطئ منعزل. لكنّ ذلك الطنين حول مقعدها الأسود، كان كافياً كي تكوّن آنييزه انطباعاً بأنّها جرت ذات ليلة جرياً محموماً عبر غابات بدائيّة، لتجد نفسها فجأة، بعد ذلك، في مواجهة البحر، وهي تمشي فوق كثبان مزهرةٍ بالزنابق البريّة، ومذهّبةٍ بألوان الفجر.

كان هناك شيء ما يصعد إليها من أعماق وجودها، فترتفع أحشاؤها حتّى حنجرتها، وينقلب كلّ ما حولها، كما لو أنّها سارت لفترة طويلة بالمقلوب، ورأسها إلى الأسفل، قبل أن تستعيد وضعها الطبيعيّ.

كان ذلك كلّ ماضيها، وماضي جنسها البشريّ، وهو يعود الآن إليها ويستعيدها، من خلال ذلك النشيد الذي أنشده رجال كبار السنّ ونساء، بأصوات مربّيتها وخادماتها والرجال والنساء الذين صنعوا وأثّثوا بيتها وزرعوا بستانها ونسجوا قماش لفائفها الأولى، عندما كانت طفلة في المهد.

كيف يمكن لها أن توجّه الاتّهام لنفسها، أمام ذلك الشعب، الذي ما زال يعتبرها سيّدته، ويعتقد أنّها ما زالت أنقى من القسّ على المذبح؟.

عندها شعرت، هي أيضاً، بوجود الله حولها وفي داخلها، بل في شغف مشاعرها بالذات.

كانت تعرف حقّ المعرفة أنّ العقاب الذي كانت تنوي إنزاله بالرجل الذي ارتكبت الإثم بالشراكة معه، إنّما هو عقاب بحقّها أيضاً. لكنّ الله الرحيم كلّمها الآن بصوت رجال شيوخ، ونساء عجائز، وأطفال أبرياء، وحذّرها من نفسها، ونصحها بأن تخلّصها.

عُرضت أمامها، من خلال أناشيد شعبها، كلُّ أيّامها التي عاشتها في وحدة وانعزال: فرأت نفسها طفلةً، ثمّ فتاةً، ثم امرأة، في تلك الكنيسة بالذات، على ذلك المقعد الأسود نفسه، المقعد الذي استهلكته ركب وأكواع أسلافها. فهذه الكنيسة بالذات كانت تعود بشكل ما لعائلتها، لأنّ واحدة من أسلافها هي التي شيّدتها. كما تقول الأسطورة، إنّ أحد أجدادها هو الذي استعاد التمثال الصغير، الذي يمثّل العذراء، من أيدي القراصنة البرابرة، وأعاده إلى البلدة.

لقد ولدت ونشأت وسط هذه الأساطير، ضمن أجواء العظمة، التي وإن فصلتها عن شعب بلدة آار الصغيرة، فإنّها أبقتها في وسطهم، مكنونة بينهم، مثل لؤلؤة داخل صدفة خشنة.

فكيف يمكن لها أن تتّهم نفسها أمام شعبها؟

لكنّ شعورها هذا بأنّها سيّدة، بل سيّدة هذا المكان المقدّس أيضاً، جعل من الصعب عليها أن تقبل بوجود ذلك الرجل، الذي كان شريكها في الخطيئة، والذي يظهر لها الآن مقنّعا، في علاه، بالقداسة، يحمل الأواني المقدّسة في يده، سامياً ومشرقاً، فوقها، هي المنحنية تحت قدميه، والمذنبة بأنّها أحبّته.

انتفخ قلبها من جديد بمشاعر الغضب والحزن، فاهتزّت أناشيد الشعب حولها وأصبحت قاتمة مظلمة، كأنّها تتلى في أعماق هاوية وتطلب منها العدل والخلاص.

كما أصبح كلام الله لها قاتم الوقع قاسياً، كأنّه يفرض عليها أن تطرد من معبده عبدَه الدجّال.

صارت شاحبة اللون، باردة بعرق مميت. ارتجفت ركبتاها على المقعد، لكنّها لم تحنِ رأسها، بل بقيت ثابتة تنظر إلى حركات القسّ فوق المذبح. شعرت بنوع من النفَس الشرّير يخرج من فمها، ويتوجّه مباشرة نحوه، ليغمره ويحيط به، بالصقيع الذي يلفّها.

وشعر هو بذلك النفَس المميت.

تجمّدت أطراف أصابعه، كما يحدث له في الصباح الباكر من أيّام كانون الثاني الباردة. وبدأت رجفة عنقه تهزّه بطريقة أقوى. عندما التفت ليقوم بالتبريك، رأى أنّ آنييزه تنظر إليه. التقت عيونهما في ومضة نور. وكما يتذكّر الغرقى وهم ينحدرون نحو القاع، تذكّر في تلك اللحظة، كلّ أفراح حياته التي ما جاءت إلا من حبّه لها، منذ النظرة الأولى، إلى القبلة الأولى.

رآها تنهض والكتاب في يدها.

"إلهي! لتكن مشيئتك". تمتم منتحباً وهو يركع، وبدا له أنّه موجود بالفعل في بستان الزيتون[1]، ناظراً ليلقى مصيره المحتوم.

صلّى بصوت مرتفع، وانتظر. بدا له أنّه يسمع، بين تمتمات صلواته، صوت خطى آنييزه وهي تتقدّم نحو المذبح.

"ها هي ذي...لقد نهضت من على مقعدها، أصبحت في الفسحة بين مقعدها والمذبح. ها هي ذي.. تسير هناك، ينظر الجميع إليها. لقد أصبحت وراء كتفي".

---

(1) جاء في الأناجيل أنّ يسوع المسيح ذهب إلى جبل الزيتون بعد العشاء الأخير وقبل أن يقوم يهوذا بخيانته ويمسكون به.

عادت هواجسه واستولت عليه بقوّة حتّى إنّ صوته تجمّد في حلقه. رأى أنتيوكو، الذي بدأ بإطفاء الشموع، يلتفت بغتة ليرى، فلم يخامره أيّ شك بأنها أصبحت هناك، خلف منكبيه، على درج المذبح.

نهض، وبدا له أنّه لامس قبّة السقف برأسه، وشعر بأنّها سحقته، عادت ركبتاه فانقصفتا من جديد. لكنّه استجمع شجاعته وصعد على الدرج، وذهب نحو المذبح ليستعيد قدح أقراص القربان المقدّس.

عندما التفت ليعود إلى غرفته رأى آنييزه وهي تتقدّم من مقعدها نحو الدرابزين وتستعدّ للصعود على الدرج. "ربّي وإلهي، لماذا لم تسمح لي بأن أموت؟".

مال برأسه فوق القدح، فبدا أنّه يقدّم رقبته الشاحبة لضربة الفأس التي ستقصمها.

لكنّه، وهو يتقدّم نحو باب غرفته، رأى آنييزه تركع على الدرج تحت الدرابزين.

صدمت بقدمها الدرجة الأولى تحت الدرابزين، وكأنّ الدرجة كانت سوراً انتصب بغتة أمامها، فانحنت على ركبتها. لم تتمكّن من التقدّم ثانية. فلقد خيّم حجاب سميك على عينيها وحجب عنها البصر.

لم تر الدرج إلا بعد دقائق، ورأت السجّادة المصفرّة في أسفل المذبح، ورأت المذبح المزهر والمصباح المشتعل.

لكنّ القسّ كان قد اختفى. كان في مكانه شعاع شمس مائل اجتاز المكان وخلّف بقعة من ذهب فوق السجّادة.

رسمت إشارة الصليب، ثمّ نهضت وذهبت نحو الباب. كانت خادمتها تتبعها. فالتفت الشيوخ من الرجال والتفتت النساء والتفت الأطفال لينظروا جميعاً إليها، كانوا يتبسمون لها ويباركونها بعيونهم. هي سيّدتهم، رمز الجمال والإيمان، البعيد جداً عنهم، رغم أنّها بينهم ووسطهم، وسط بؤسهم، كأنّها الوردة بين أشواك العليق.

قبل خروجها، قدّمت لها الخادمة الماء المقدّس بطرف إصبعها، ثمّ انحنت قرب الباب لتنفض بيدها الغبار الذي علق بثيابها على درج المذبح.

عندما نهضت الخادمة، رأت وجهَ آنيزه الشاحب، وهي تنظر إلى زاوية الكنيسة التي كانت فيها أمّ القسّ. كانت هذه جامدة في مكانها مقابل الجدار، ورأسها مائل على صدرها، بدا كما لو أنّها تستجمع قواها لتسند الجدار، وكأنّها تخشى أن يسقط عليها.

التفتت امرأة أخرى لتراقب المشهد، بعدما لاحظت اهتمام آنيزه وخادمتها. ثمّ إنّها اقتربت بقفزة واحدة من أمّ القسّ، نادت عليها بصوت منخفض، ثمّ رفعت لها رأسها بيدها.

كانت عينا الأمّ شبه مغمضتين، لكنّهما تبلورتا وارتفعت حدقتاهما إلى الأعلى وغابتا. كما سقطت المسبحة من يدها، وانحنى رأسها على جانب المرأة التي كانت تسندها.

"لقد ماتت"، صرخت المرأة.

وقف الجميع في لحظة، وتجمّعوا في صدر الكنيسة.

كان باولو قد أصبح في غرفته، مع أنتيوكو الذي أعاد كتاب الأناجيل.

كان يرتجف، يرتجف من البرد ومن الفرح. رأى أنّه كمن نجا من غرق محتّم. شعر بالحاجة إلى التحرّك طلباً للدفء والحرارة، كي يقتنع أنّ كلّ شيء كان مجرّد حلم.

وصلت إليه من الكنيسة أصواتُ ضجيجٍ مشوّشة، كانت منخفضة ثمّ تزايد ارتفاعها. أطلّ أنتيوكو برأسه من الباب، فرأى جموع الناس المحتشدين في صدر الكنيسة، واقفين، كما لو أنّ باب الكنيسة قد أوصد دونهم. لكن ها هو رجل عجوز يصعد على درج المذبح وهو يقوم بإشارات غامضة.

"لقد ألمّت بالأمّ وعكة".

وبسرعة فائقة نزل باولو إلى تحت، وهو ما زال في قميص الكهنوت، ركع، والجمع محتشد وراءه، ليرى عن قرب أمّه مسجّاة على الأرض ورأسها مركون في حضن امرأة من الناس. "أمّي، أمّي؟".

ما زال وجهها جامداً صارم المعالم، عيناها مشقوقتان، كما ما زالت أسنانها مطبقة لتحبس الصرخة. أدرك أنّها ماتت بسبب الألم نفسه، والرعب نفسه، اللذين تمكّن هو من تجاوزهما.

عضّ هو أيضاً على أسنانه، وأطبقها كي لا يصرخ. عندما رفع عينيه وسط الغيمة المشوّشة التي شكلّتها جموع الناس حوله، التقت عيناه بعيني آنييزه.

النهايـــة

Grazia Deledda

LA MADRE

نشرت رواية "الأم" في جريدة "التيمبو" الإيطالية عام 1919 على شكل حلقات، وتم نشرها لاحقاً في كتاب عام 1929 في مدينة ميلانو.

وقد تمّت ترجمة الرواية مرّتين إلى الإنكليزية، وقام الكاتب الإنكليزي المعروف د. اتش. لورنس بكتابة مقدّمة للترجمة الشهيرة الصادرة عام 1923. ومن الطبيعيّ أنّ الرواية قد نشرت عشرات المرّات بالإيطاليّة والإنكليزية وغيرهما من اللغات. كما تمّ استيحاء الرواية وإخراجها في فيلمين متميزَين ظهرا في إيطاليا، أوّلهما عام 1954 بعنوان "الممنوع" والثاني بعنوان "الأم" عام 2014.

بطلة الرواية هي ماريّا مادّالينا أمّ باولو خوري كنيسة آر، وهي بلدة خياليّة على جبال جزيرة سردينيا. يحب باولو أنييزه، التي تعيش لوحدها في البلدة، وتنشأ بين الاثنين علاقة حبّ جامحة. تعاني الأمّ أشدّ المعاناة عندما تكتشف هذه العلاقة، كما أنّ باولو يتعرّض لقلق شديد بسبب هذه الخطيئة، فيسعى إلى ترك أنييزه، عندها تهدّد الفتاة بأن تفضح الراهب أمام المصلّين في الكنيسة التي سيقيم القدّاس فيها. لكنّها ما تلبث أن تتراجع عن هذه الخطّة. تتراكم هذه الهموم في قلب الأمّ، وتملؤ قلبها بالحزن وبالألم، فتموت فجأة وهي تصلّي في الكنيسة.


ISBN 978-9933-579-52-4
9 789933 579524